مكتبة حراء

إلى جبل قاف

(قصص واقعية)

تحرير:
أديب الدباغ
أجير أشيوك
نور الدين صواش

دار النيل

إلى جبل قاف

مكتبة حراء

إلى جبل قاف

(قصص واقعية)

تحرير:
أديب الدباغ
أجير أشيوك
نور الدين صواش

دار النيل

Copyright © 2011 Dar al-Nile
Copyright © 2011 Işık Yayınları

دار النيل للطباعة والنشر

الطبعة الأولى: ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١م

تحرير: أديب الدباغ، أجير أشِيوك، نور الدين صواش

تصميم وغلاف: مراد عرباجي

رقم الإيداع: ISBN: 978-975-315-457-4

DAR AL-NILE

Bulgurlu Mah. Bağcılar Cad. No:1
34696 Üsküdar - **İstanbul / Türkiye**
Tel: +90 216 5221144 Faks: +90 216 5221178

مركز التوزيع / فرع القاهرة

العنوان: ٧ ش البرامكة - الحي السابع - مدينة نصر - القاهرة

جمهورية مصر العربية

تليفون وفاكس:+20222631551

المحمول: +20165523088

www.daralnile.com

فهرس

مقدمة ١
في بلاد الثلج ٣
لفح النار ٦
ثلاثة أجيال أمام المحكمة ١٢
المتاهة ١٩
في الطريق إلى الحياة الأبدية ٢٥
كأني أكلت ٣٢
وا اِبناه... لتكن أنت الفداء! ٣٧
مناجاة أُمّ ٤٢
إلى جبل قاف ٤٦
وا صلاتاه! ٥٥
الانتصار الأخير ٥٩
الثالثة إلا عشر دقائق ٦٣
الشهيدة ٧٠
رجال ولا كأي رجال ٧٧
لا تذهب يا أبت... ..... ٨٢
المسوّف ٩٠
ياسين أنت ٩٤
آخر حُرّاس الأقصى ٩٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

كثيرا ما تبدو بعض القصص الواقعية وكأنها أقدر على منافسة أكثر القصص إيغالا في الخيال واشتطاطا فيه. وهذه القصص الواقعية التى يضمها هذا الكتاب هي من هذا القبيل. فإنها لغرابتها وغرابة أحداثها ووقائعها تكاد تند عن التصديق وتتأبى على المعقول، ولكنها في الحقيقة هي الصدق بعينه ومعظم أبطالها موجودون بيننا، نحادثهم ويحادثوننا، ونستمع إليهم ويستمعون لنا؛ إنهم شخصيات إنسانية شابة، خفيضة العيش، وافرة الراحة، ناعمة البال، عزيزة الجانب، فإذا بها تدير ظهرَها لكل ذلك وتختار عليه الاغتراب في عوالم مجهولة، فتقطع المسافات وترتاد الأقطار والقارات، فتفنى وتتعب وتكابد القر والحر، وتعاني في بعض البلاد النائية درجات حرارة تنخفض ما دون الصفر، وفي أخرى درجات حرارة عالية فوق المعقول، ثم تجد في هذا كله متعة من متع العقل السامي، والفكر العالي، والراحة التامة فيما يقدمونه من خدمات إنسانية وإيمانية وتعليمية لشعوب قصية وبلاد نائية لم يكونوا قد رأوها حتى على الخرائط والأطالس، فيقتحمون هذه الصعاب بقلب شجاع، وهمة قعساء وإرادة حديدية وتصميم لا يعرف التردد، وسرعان ما يكسبون بحسن تلطفهم وحكمة تصرفهم وجمال خلقهم، قلوبَ الناس وثقتَهم وتقديرهم، فيبادلونهم الحب والود، ويتفهمون الرسالة التي جاؤوا

بها إليهم، ويساعدونهم على تحقيقها. والعجيب المذهل أن كثيرا من هؤلاء الشباب يبدأون عملهم متوكلين على الله تعالى من "اللا شيء" فإذا بهذا اللاشيء" يتحول بعد قليل بعون الله تعالى إلى "شيء" وإلى "كل شيء".

وبعد: فهذه القصص بواقعيتها وبما تهدف إليه من حيث كونها تقدم للقارئ نماذج لأبطال يُحتذَى بهم، ويُقتدى بسيرتهم لا تجد نفسَها ملزَمة بمراعاة الأدوات الفنية المطلوبة في أبنية القصص التي تُقرأ لمجرد المتعة وإزجاء الفراغ.

ويَحسُن أن ننبه إلى أن هذه القصص سبق وأن نشرت على صفحات مجلة حراء في أعداد مختلفة، فوجدنا جمعها في هذا الكتاب إتماما للفائدة، والله تعالى من وراء القصد.

أديب الدباغ

في بلاد الثلج

محمد سداد *

الفصل شتاء... المكان بلد من بلدان روسيا الشهيرة بجبالها الشاهقة وبردها القارس وثلوجها التي لا تذوب حتى نهاية الربيع. مضى على مغادرته لتركيا بضعة أشهر. حين ودع الأهل والأصدقاء كان يوما من أيام الخريف حيث أخذت أوراق الأشجار الصفراء تتساقط منذرة بنهاية الأيام الجميلة. إنه الآن في بلاد بعيدة تقع في أقاصي الأرض، ولا يعرف عنها شيئا سوى ما قرأ في كتب القصص والأساطير.

شاب في السادسة والعشرين من عمره. تخرج في إحدى الجامعات الراقية بإسطنبول. يتقن اللغة الإنكليزية كلغته الأم. نعم، إنه الآن بعيد عن الوطن، في أرض لا يعرف لغتها ولا ثقافتها. دفعه إلى هنا صوت انطلق من أعماقه "امض يا أخي، فهناك ظمآى يترقبون النور الذي تحمله إليهم". أتى إلى هذه البقعة النائية من روسيا مدرسا للإنكليزية في ثانوية فتحها متطوعون من تركيا قبل عدة سنوات لنشر رسالة الحب والسلام. البرد قارس والجبال يكللها الضباب والثلوج تغطي كل مكان... المفروض ألا يتأثر بالبرد لأنه قد اعتاد على مثله في مدينة "أرضروم" الشرقية الشهيرة ببردها وتساقط ثلوجها. غير أن الوضع هنا يختلف تماما. فهو يقسم أن جسده لم يشهد طوال حياته مثل هذا البرد. الفترة القصيرة التي انقضت

ما بين نزوله من الطائرة وركوبه السيارة بدت له كأنها عام كامل. الموت تجمدا أمر سهل للغاية هنا.

وصل المدرسة... كوكبة من الشباب في انتظاره رغم البرد القارس. كلهم أتوا من تركيا. أحدهم معلم إنكليزية والآخر معلم كيمياء، والثالث معلم فيزياء... كلهم خريجو أرقى جامعات تركيا. غير أنهم اختاروا هذه البلاد الباردة على وطنهم الدافئ والعروض المغرية. حملتهم نفس الغاية السامية. أثناء تجواله في الممرات والفصول تحدث مدير المدرسة عن ضيق الإمكانيات والمواقد المعطلة ومشكلة الكهرباء التي لا يعلم إلا الله متى تعمل وأمورا أخرى كثيرة. تساءل الشاب بينه وبين نفسه "أيمكن العيش هنا؟"

تعلقت نظراته على زملائه وهم يطوفون حوله بحماس... هذا يصلح جانبا من البناء المتداعي وذاك يدهن الجدران وآخر يحمل خزانة... لمح النور الذي يتلألأ في عيونهم. امتلأ قلبه بالغبطة لهؤلاء الشباب الذين نذروا أنفسهم لرسالة الحب والتسامح والإخاء. من أين يجدون هذه الطاقة من الصبر؟ أنى لهم هذه القوة من الشوق والعزم الذي لا ينفد؟ كان يعمل كل واحد منهم كأنه جذوة متقدة... الأمل يتألق في محيا الجميع... بسمة الفرح تعلو جميع الوجوه؟ ما سر هذا يا ترى؟

عندما بدأت العتمة تسري في الجو علم أن الشمس مالت إلى المغيب. أين هو السعيد الذي يحظى برؤية الشمس؟ الغيوم الرمادية تغطي الآفاق هنا أكثر من ستة أشهر. ذهبوا به إلى منزل أحد تلاميذ المدرسة. خلافا للبرودة المجمدة احتضنته حرارة حنون في الداخل. بعد قليل لاح التلميذ يحمل صينية أكواب من الشاي الساخن. توقع أن يكون في الخامسة عشر

من العمر، قامته تميل إلى الطول، شعر أصفر يميل إلى الحمرة، عينان زرقاوان في وجه مستدير أبيض تعلوه ابتسامة الترحاب. أثناء تقديمه الشاي قال التلميذ للضيف الجديد بلغة تركية جيدة "أنا أجيد اللغة التركية". حاول الضيف أن يغطي حيرته بابتسامة متكلفة "قل شيئا بالتركية إذن؟"

حدق الفتى في عينيه وقال بصوت رخيم وبسمة واسعة وكأنه اكتشف تساؤلاته التي تصطرع داخله منذ النهار "أما ترضى... أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة..."

أصيب بصدمة... فوجئ... لم يكن يتوقع هذا الرد... أحس بالخجل يجري في عروقه بسبب الأفكار التي راودته أثناء تجواله في المدرسة. يا إلهي! ها هو السر؟ إنه اكتشف سر الصبر والعزم والشوق الذي شد قلوب زملائه إلى هذه البقاع النائية... ها هو السر يقف أمامه بوجهه الطلق المتبسم. فأحس بصوت ينطلق من أعماقه "بل هنا الحياة الحقيقية التي تستحق العيش". أحس بارتياح عميق في قلبه. زالت جميع الآلام والأحزان. شعر أنه وجد وطنه الحقيقي.

(*) كاتب تركي، وهي قصة حقيقية وقعت في إحدى مناطق روسيا.

لفح النار

أشرف أونن *

كان حكمت عاملا مجتهدا في مخبز البلدية، وكان آخر من يغادر المخبز غالبا. كان فرن المخبز كبيرا يحتاج في بعض الأحيان إلى تنظيف، وكثيرا ما يقوم حكمت بهذا العمل.

كان اليوم الأخير لأحد الأعياد. غدًا تنتهي العطلة الرسمية وتعود البلدية لبيع الخبز من جديد. ذهب حكمت في ساعة متأخرة من الليل إلى المخبز لينظف الفرن الرئيسي. دخل المخبز وقفل الباب الخارجي، سينظف الفرن ويعود إلى منزله فورا، وعندما يأتي العمال في الساعة الرابعة فجرا سيجدون الفرن نظيفا، فيضغطون على الزر الكهربائي لإيقاده، وما هي إلا دقائق حتى تحصل الحرارة المطلوبة بينما يكونون هم قد انتهوا من العجين وأعدوه للخبز.

كان حكمت في الفرن الرئيسي مستسلما لعمله منفصلا عما حوله تماما. وفي تلك الأثناء بالضبط دخل المخبز زميله راغب ليأخذ ملابسه المتسخة للغسل. فتح الباب الخارجي في حيرة، وتمتم قائلا: "عجيب! أبلغ الإهمال إلى هذا الحد ليتركوا الأنوار مفتوحة في الداخل؟" تناول ملابسه واتجه نحو الباب الخارجي فوجد باب الفرن مفتوحا، فدفعه برفق، ولم يهمل إطفاء الأنوار.

وما كادت الأنوار تنطفئ حتى هرع حكمت إلى باب الفرن بارتياع، لكن دون جدوى إذ كان الباب مقفلاً. أخذ يصرخ بما لديه من قوة صوت، وضرب بقبضتيه الباب بشدة ومرات متكررة بلا فائدة. لا أحد يسمع صوته ولا أحد يشعر بأنينه وصراخه. اقشعر جلده واعترته رجفة عنيفة وأخذته دهشة رهيبة.

لم يصح من الصدمة لمدة طويلة... نظر إلى الساعة... الحادية عشرة وخمس دقائق... لم يبق سوى خمس ساعات فقط. خمس ساعات بينه وبين الموت. الموت يقف ماثلا محددا أنظاره النارية إليه مكشرا عن أنيابه المرعبة. ها هو سيلقى في نار جهنم قبل أن ينتقل إلى دار الآخرة.

أخذ يتخيل ما سيحدث، ستزداد حرارة الفرن رويدا رويدا، وسيشعر أولا بالعرق يبلل كل جسده، ثم ينفد الهواء النقي وتطبق عليه الجدران حتى تخنقه، وتكثر الحرارة وتتلظى النيران ويتميز المكان غيظا وحدة، ويأخذ دهن جسده يذوب ببطء، وتلفح ألسنة النار لحمه فتشويه. ومن يدري فقد يموت قبل أن تحدث كل هذه الأمور بسكتة قلبية، أو قد يفقد عقله ويصرخ كالمجنون. آه ليته يجن، الجنون أفضل شيء في مثل هذا الموقف، إذن ينجو من عذاب نار التفكير المتأججة في دماغه.

وتذكر لذع الحرارة عندما كان يخرج الأرغفة من الفرن المضطرم، ذلك القدر من الحرارة فقط لم يكن يطيقه فيلقي بالأرغفة من يديه فورا. ولكن ها هو سيشوى الآن حياً.

قبل بضعة أيام بينما كان يغلي شايا على موقد صغير مع زملائه مست يده طرفا من الحديد المحمر كالجمر، يا إلهي، كم كان الألم فظيعا وكيف انتفخت أصابعه بسرعة، فأسرع بوضعها في الماء البارد لمدة طويلة عله

يخفف من آلامه. أما الآن، فلن يحترق أصبع أو أصبعان بل كل جسده وكل ذرة في جسده. تمثلت أمام عينيه مشاهد من بعض الأفلام، رجال وقد اشتعلت فيهم النار تأكلهم وهم يتلوون يمنة ويسرة ويسقطون على الأرض دون جدوى ويصرخون بجنون ويستغيثون حيث لا مغيث.

كأن الحرارة ارتفعت... هل ضغط الرجل على مفتاح الفرن حين أغلق الباب يا ترى؟ وإلا لماذا ارتفعت حرارة المكان هكذا؟ يا إلهي! هل حانت اللحظة الفظيعة؟! نظر إلى ساعته مرة أخرى، النصف بعد الواحدة ليلا... كيف مضت ساعتان بهذه السرعة؟ مضت الدقائق كالريح الجارية، كالعمر تماما. مد يده إلى الجدران الحديدية بخوف ولمسها بأنفاس متلاحقة وقلب يكاد يفر من مكانه. تنفس الصعداء... ما زال الحديد باردا.

حملته خواطره إلى المنزل، لا شك أن زوجته وولده الوحيد قلقان الآن بشأنه. لماذا صرخ بوجه زوجته قبل أن يغادر المنزل، هل استحقت ذلك يا ترى؟ كان عليه أن يكون أكثر رقة لرفيقة حياته. ليته لم يضرب ولده الوحيد. لا ريب أنه مسؤول عنهما أمام الله وسيؤدي حسابهما أيضا. ليته فعل ما أشارت إليه زوجته حين قالت له: "أتوسل إليك أن تصلي يا عزيزي" لكنه رفض محتجا: "دعينا نستمتع بالحياة، ما لنا وللصلاة في ربيع حياتنا؟" كأن الإنسان سيحاسب عن مرحلة الشيخوخة فقط وليس عن العمر كله. لماذا لم يذهب إلى المسجد الذي يقع على طريقه؟ ألم يسمع مرات ومرات المؤذن وهو يعلن من أعماق قلبه عظمة الخالق ويدعو الناس إلى سبيل النجاة؟ لو أنه استجاب إلى داعي الصلاة هذه الليلة لتمكن من أداء صلاة وقت على الأقل، وإن كانت أول وآخر صلاة. ومن يدري، لعل الله يشفع له بفضل هذه الصلاة فيغفر له ذنوب الأوقات

الأخرى التي أهملها طوال حياته. أما الآن فهو ذاهب إلى الله بوجه خال من نور السجود. ليتني كنت ممن تتلألؤ وجوههم بنور الصلاة.

ماذا عن ولدي؟! إنه في السابعة من عمره. لماذا لم أهتم بتكوين قلبه وروحه بقدر ما اعتنيت بإشباع بطنه وإلباسه الملابس الجميلة؟ لماذا لم أوجهه توجيها سليما ينير له طريق الحياة؟ لماذا لم أنقش في قلبه حب الله ورسوله، بل لماذا نسيتهما أنا وأسلمت نفسي إلى غفلة أنستني أنني لست مخلدا في الحياة وقد أفارقها في أية لحظة؟ لماذا؟

ثم شردت به خواطره إلى صباه ثم إلى أيام شبابه، واستعرض فصل الشباب يوما بعد يوم، فلم يجد سوى الذنوب والأخطاء التي يستنكرها كل قلب سليم ويستحيي منها كل عقل بصير. مرت جميع أخطائه أمام عينيه، يا إلهي، هل أحاسب على كل هذه الأخطاء؟ رباه...

لمعت في خاطره فكرة كالبرق؛ أن يتيمم في الفرن ويصلي، ولكن أين التراب؟ ليكن، ذلك أفضل من أن أذهب مسود الوجه إلى ربي، ورحمة الله واسعة. ضرب بيديه على مكان في الفرن وتيمم ووقف للصلاة. أليس هو الملاذ الوحيد الذي يلجأ إليه كل مضطر في اللحظات التي تسد فيها جميع الأبواب؟

لأول مرة في حياته يحس بأنه يتحدث إلى خالق السماوات والأرض بينما المفروض أن يرتشف الإنسان من هذا النبع في كل صلاة. ولأول مرة يدرك بعمق معنى الالتجاء إلى الله والاستعانة به وحلاوة مناجاته. وسجد حكمت لمبدع الزمان والمكان بجميع كيانه، وناجاه بصوت ملؤه الإخلاص شاعرا بعجزه اللانهائي: "يا أعظم من كل عظيم يا أرحم من كل رحيم..."

بعد أن أدى صلاة العشاء أخذ يقضي ما فاته من الصلوات. أجل إنا لله... وإنا إليه راجعون... إنه الآن يدرك هذه الحقيقة بكل ذراته. ليته لم

ينس أبدا أن المصير إليه. ولما شعر بالتعب جلس وأخذ يستغفر الله بصوت حزين ودموع صادقة. وكلما أفاق من استغراقه العميق وذكر أنه مسجون في هذا المكان الضيق شعر بأن الجدران تصب عليه نارا سوداء.

أما راغب فقد ذهب إلى بيته واستغرق في نوم عميق. لكنه فجأة انتفض من نومه، نظر إلى ساعته، الثالثة والربع. أعوذ بالله، رؤيا مرعبة، صديقه حكمت يحترق في الفرن وسط نيران متأججة ويصرخ بصوت يمزق الأحشاء "راغب! راغب النجدة! النجدة! راغب!" ما هذه الرؤيا؟

فجأة برق في ذهنه خاطر رهيب... رباه! هل أغلق باب الفرن على حكمت يا ترى؟! هرع إلى الشارع كالريح خشية أن يكون قد فات الأوان.

أدخل المفتاح بارتباك، فتح الأنوار وأسرع نحو الفرن، فتح الباب وصاح: "حكمت!" لم يسمع سوى صدى صوته. هتف عدة مرات أخرى...

كان حكمت في نفس اللحظة يصلي وسط دموع غزيرة حارة وقد غرق في عوالم علوية سماوية. فانتفض على أثر صوت راغب. كلا هذا مستحيل، لا شك أنه سمع خطأ. فدوى نفس الصوت في أركان الفرن. أجل هناك شخص ما يهتف باسمه مرة بعد أخرى: "حكمت، حكمت، حكمت..." وها هي أنوار المخبز تضيء المكان.

قام من الصلاة بفرحة غامرة وخرج من الفرن مبتهجا فرأى صديقه. انتفض راغب ذعرا وجمد في مكانه مشدوها كأنه رأى شبحا مروعا، كان يرتعد وجلا: "من أنت..؟" فتح حكمت ذراعيه ليحتضن صديقه، غير أن يديه ظلتا فارغتين، قال ودموعه تسيل: "أنا حكمت، حكمت يا رجل، ألا تراني؟ دخلت الفرن ليلا ولا أدري من أغلق علي الباب." "كلا هذا مستحيل، لا يمكن أن تكون أنت حكمت..."

ماذا يقصد؟ ما معنى هذا التصرف الغريب؟ ما هذا الكلام، أهو وقت مزاح؟ وفجأة خطرت بباله فكرة رهيبة، هرع إلى المرآة ونظر إلى وجهه... لا، لا، لا يمكن أن يكون هذا الوجه وجهه، وهذا الشعر شعره! أخذ يتحسس وجهه الشاحب المتجعد وشعره الأشيب. يا إلهي، لقد هبطت عليه الشيخوخة في ليلة واحدة.

كان كل جسده ينتفض بنشيجه وبكائه. لم يجرؤ على النظر إلى المرآة مرة أخرى. فقد أخافه منظره الذي رآه.

لو أحس الإنسان بحقيقة الاحتراق في النار لشاخت نفوس

كثيرة في لحظة واحدة. وظل حكمت هكذا ممسكا برأسه بين يديه مستغرقا في تساؤلاته...

(*) كاتب وباحث تركي. وهذه القصة حقيقية وقعت في إحدى مدن تركيا.

ثلاثة أجيال أمام المحكمة

أورخان محمد علي *

ألقى رئيس المحكمة الإيطالي كارو تورللي نظرة ثاقبة على المتهمين الثلاثة الماثلين أمامه، شيخ وكهل وشاب في مقتبل العمر، كانوا يمثلون أجيالا ثلاثة متعاقبة. والغريب أنهم كانوا من عائلة عثمانية واحدة... كان الشيخ هو الجد والكهل ابنه والشاب حفيده.

كانوا آتين من مكان بعيد بعيد... من وراء آلاف الكيلومترات... من الأناضول إلى بنغازي في ليبيا. ما الذي دفعهم ليقطعوا كل هذه المسافة ليصلوا خفية إلى ليبيا؟! لم يكن رئيس المحكمة يجهل سبب مجيئهم... إنه داعي الجهاد الذي لا يزال المسلمون متمسكين به... داعي الجهاد هذا هو الذي دفع هذا الشيخ وابنه وحفيده وهو في ميعة الصبا إلى ترك مدينتهم وبيتهم ويقطعوا كل هذه المسافة ليصلوا إلى ليبيا من أجل معاونة إخواهم الليبيين والجهاد معهم ضد إيطاليا التي احتلت ليبيا.

كان الشيخ هو الميرلواء (الجنرال) المتقاعد محمد باشا... وابنه الميرالاي أحمد علاء الدين محمد... والحفيد هو الشاب محمد... فما قصة هؤلاء المجاهدين من الجد والأب والحفيد؟

كانت طرابلس الغرب وبنغازي قد احتلتا من قبل إيطاليا، وكانت الدولة العثمانية في ضائقة مالية وعسكرية كبيرة، وهي تعاني من سيطرة

حزب الاتحاد والترقي عليها بعد عزل السلطان عبد الحميد الثاني سنة ١٩٠٩. لم تكن الدولة العثمانية قادرة على مواجهة إيطاليا عندما قامت في ١٩١١م بغزو ليبيا فجأة ودون سابق إنذار. كل ما كانت تستطيعه هو إرسال بعض المجاهدين لمساعدة إخوانهم الليبيين. لم يتردد هؤلاء المجاهدون الثلاثة... الجد والابن والحفيد... تقدموا وسجلوا أنفسهم في المجموعة الفدائية التي أطلق عليها اسم "الضباط الفدائيون". وعلى الرغم من جميع الشروط والظروف القاسية، ومن قلة العدد، وقلة الأسلحة والمعدات، وقلة التمويل، وطول الطريق، فقد وصلوا سرا إلى ليبيا حيث التقوا رؤساء العشائر وأشراف البلد وبدأوا بتدريب البدو وأبناء العشائر على فن القتال. لم يكونوا يملكون أسلحة ثقيلة، لا مدافع ولا دبابات ولا رشاشات، بل مجرد بضع مئات من البنادق القديمة. كان عدد الضباط العثمانيين وكذلك المتطوعين من أفراد العشائر الليبية قليلين، وكان مطلوبا منهم القتال ضد جيش إيطالي مجهز بالأسلحة الثقيلة وبالطائرات، ويفوقهم بعشرات بل بمئات المرات في العدد والعدة. كانوا يعتمدون في الحصول على الأسلحة على الهجوم المباغت الذي يشنونه على العدو ويحصلون على أسلحة الفارين والمقتولين منهم.

في إحدى الهجمات التي كبدوا فيها العدو خسائر كثيرة طُوقوا وحوصروا من قبل مدد جديد للجيش الإيطالي وأسروا. وها هم اليوم يمثلون أمام محكمة عسكرية إيطالية.

كانت أيديهم موثقة بالحبال بقوة بحيث أدمتها، كانوا يلبسون اللباس الليبي المحلي، وعلى رأس كل منهم طربوش عثماني.كانت التهمة ثابتة عليهم في نظر المحكمة، فقد أسروا وهم يقتلون ورائحة وأثر البارود لا

يزال على أيديهم.

ولكن الشيء الوحيد الذي كان يزعج رئيس المحكمة هو وجود صحفيين أحدهما بريطاني والآخر فرنسي حضرا لمتابعة المحكمة. سألهم رئيس المحكمة:

- من أنتم؟

وقبل أن يقوم مترجم المحكمة بترجمة إلى المتهمين تقدم الكهل خطوة إلى الأمام وقال بلغة إيطالية سليمة:

- اسمي الميرالاي (العقيد) أحمد علاء الدين الضابط العثماني في خدمة مولاي السلطان... وهذا (مشيرا إلى والده) والدي الميرلواء (جنرال برتبة لواء) المتقاعد محمد باشا... وهذا (مشيرا إلى ابنه) ابني محمد الجندي المتطوع في الجيش العثماني.

استولى الذهول على أعضاء المحكمة وعلى الحاضرين في المحكمة وتبادل الصحفيان نظرة حائرة. جنرال متقاعد يتطوع في الجيش وتحت إمرة ابنه ويقاتل العدو كأي جندي آخر!! ثم أيّ عائلة هذه التي يجتمع فيها الجد مع الابن مع الحفيد في معركة يائسة بعيدة عن وطنهم؟!

أحس رئيس المحكمة أن الوضع أصبح أكثر حساسية فقد ظهر أن الماثلين أمامه عسكريون... ضابطان وجندي عثماني.

قرر رئيس المحكمة إلقاء الشبهة على هذا الأمر فقال مستجوبا العقيد:

- هل لديك أوراق رسمية تثبت ما تقول؟

بعد معاناة وألم شديد استطاع العقيد أحمد إخراج ورقة من طيات ثوبه بيديه الموثقتين:

- هذا هو الأمر الرسمي لتعييني.

أخذ الحاجب الورقة الرسمية من يد العقيد وسلمها إلى رئيس المحكمة الذي بدأ يفحصها بدقة بينما تابع العقيد كلامه:

- إن قام مترجمكم بترجمة هذه الورقة الرسمية لكم فسترون أنها أمر رسمي بتعييني قائدا للواء الثاني من الفدائيين العرب في ولاية طرابلس وهو صادر من السَّرْعَسْكَر العثماني (وزير الحربية العثماني).

كان من المفروض أن يؤدي هذا التطور الجديد في سير المحكمة إلى تغيير مجراها من محكمة تحاكم لصوصا هاجموا الجيش الإيطالي إلى محكمة عسكرية تتقيد بالقوانين الدولية حول محاكمة الأسرى العسكريين. ولكن مثل التقيد بالقوانين الدولية لمحاكمات العسكريين ومراعاتها كان أمرا بعيدا عن هذه المحكمة التي كانت قد أصدرت قرارها مسبقا وقبل بدء المحاكمة. وتظاهر رئيس المحكمة بأنه لا يصدق ادعاءات المتهمين، لذا فلم يكن يعدهم أسرى حرب، وكان دليله أنهم لم يكونوا يلبسون البزة العسكرية عند إلقاء القبض عليهم، بل كانوا بزيّ محلي.

ذكر رئيس المحكمة هذا الأمر للمتهمين نافيا كونهم عسكريين عثمانيين. أجاب العقيد العثماني:

- نظرا لكوني قائدا لمقاتلين لا يلبسون البزة العسكرية فإنني فضلت أن ألبس مثلهم ولا ألبس البزة العسكرية لعقيد عثماني.

قرأ المدعي العسكري التهمة الموجهة إليهم وهي قيامهم في ٢٦ من شهر تشرين الأول من تلك السنة بمهاجمة الجيش الإيطالي وضربه من الخلف ضربة خائنة.

أنكر العقيد أحمد علاء الدين هذه التهمة:

- لم أضربكم من الخلف، بل هجمنا عليكم، هذا كل ما في الأمر،

علماً بأننا كنا قلة قليلة.

- لم تكونوا قلة، بل هجمتم بأعداد كبيرة.

- بل كنا قلة،كل ما كنا نملكه كان عبارة عن ٤٠٠ بندقية.

- أين هذه البنادق الآن؟

- لا تزعجوا أنفسكم من هذه الناحية... ستجدون أن ٣٥٠ بندقية ستصوب إليكم في القريب. أما البنادق الباقية وهي ٥٠ بندقية فقد استشهد ١٥ مجاهدا من حامليها، وتم القبض على ٣٥ مجاهدا مع بندقيته وأعدموا من قبل محكمتكم هذه.

كان رئيس المحكمة يصر على أن هؤلاء المتهمين تابعون للحكومة الإيطالية ولكنهم أعلنوا العصيان عليها، لذا فهم مجرد شقاة عصوا دولتهم. وما دام الأمر هكذا فالحكم واضح. أما العقيد العثماني فقد أصر على موقفه قائلا:

- لم نكن نحن تابعين لكم في يوم من الأيام... ولم يكن المجاهدون العرب تحت قيادتي تابعين لكم... نحن جميعا مواطنون عثمانيون، لذا لا نعترف بكم.

ظهر الانزعاج واضحا في وجه رئيس المحكمة العسكرية، لذا حول مجرى الأسئلة إلى أسئلة قصيرة تتطلب أجوبة سريعة وقصيرة:

- هل شاركتم في الهجوم يوم ٢٦ من شهر تشرين الأول لهذه السنة (١٩١١م)؟

- لقد قدت أنا ذلك الهجوم.

- وهل اشترك هذان (مشيرا إلى والده وابنه) أيضا في ذلك الهجوم؟

- أجل! إن ابني جندي، ووالدي جنرال عثماني متقاعد تطوع في

وحدتي جنديا!!

أطرق رئيس المحكمة بنظره وتظاهر بأنه يدقق بعض الأوراق. ثم استأنف أسئلته:

- وهل قاتلتم جميعا دون بزة عسكرية؟

- أجل! وقد شرحت السبب.

- هل اشركت تحت قيادتك أي أفراد من سكان طرابلس المحليين؟ وهل دربتهم؟

- إن ولاية طرابلس ولاية عثمانية، وسكانها مواطنون عثمانيون، وقد ألحقتهم بوحدتي ودربتهم وقدتهم.

- يكفي هذا.

انتهت المحكمة وصدر القرار فورا... الإعدام رميا بالرصاص.

قام رئيس الكتاب في المحكمة وهو من مدينة نابولي الإيطالية واسمه أنطونيو أوانكلي بقراءة قرار المحكمة الذي كان قد كتب قبل انعقاد المحكمة قائلا في الختام: "وصدر القرار الآنف وسجل في السجل ولا يوجد حق تمييز للمتهمين".

يقول أحد الصحفيين اللذين كانا في المحكمة: لم تبهت الابتسامة التي كانت مرسومة على شفاه المتهمين لدى سماع القرار بل هتف العقيد العثماني بصوت واثق:

- يحيا السلطان!

أما والده الجنرال العثماني المتقاعد فقد هتف: الله أكبر!

أما الحفيد الشاب فقد بقي صامتا احتراما لوالده ولجده.

قاد الجنود المتهمين من قاعة المحكمة... وبعد فترة قصيرة سُمع

أصوات طلقات أطلقها ثلة من الجنود، فقد نفذ الحكم فيهم بسرعة وبعد خروجهم من المحكمة مباشرة.

أما رئيس المحكمة فقد دمدم قائلا:

- أحضروا المتهمين الآخرين!

قال هذا وقد حول وجهه المحمر جانبا لكي لا يلتقي نظرات الصحفيين اللذين قاما تحية للمتهمين عندما مروا أمامهما إلى ساحة الإعدام وهما يحملان قبعتيهما في يديهما.

(*) كاتب وباحث تركي. قصة مستلهمة من مجلة "سزنتي" التركية عدد ٣٠٨ سنة ٢٠٠٤.

المتاهة

جمال أمين *

بمدينة إسطنبول وفي زمن السلطان عبد الحميد الثاني تلقى الضابط مراد الأمر السلطانيّ بكثير من الامتعاض.. "لا للاستقالة.. لا لترك المهمة المقدسة، حراسةِ الفرقة العسكرية. قيادتُها في هذا الظرف العصيب أمر لا يقبل النقاش". فرَك يديه في عصبية.. أهذا جزاء ما قدمتُه من خدمات للخلافة؟.. سنوات من الأعمال الشاقة العسكرية المتعبة.. تدريبات.. أسفار.. مغامرات.. كاد مرة أن يذهب ضحية مغامراته في حرب اليونان المرعبة.. هنّأه رِفاقه على النجاة بعد تخلصه من كمين جبلي مُطبق في جوف ليلة سوداء متعبة.. دمعت عيناه.. وجفَ قلبه.. أهذا جزاء سنوات العناء ونكران الذات رغم ضآلة المرتب وشظف العيش وتواصل التعب والكدّ؟

إن حظه الآن يبتسم له، وليلة قدره تنفتح في سعة مطامعه، وكهولته تودّع عمره السارب، وللشيخوخة مطالب ملحّة رغم سلامة بنيته وصحة جسده، فكيف يترك تِركة أبيه وثرواته الغنية التي ورِثها أخيرا؟ آه.. آه.. قلّب الرسالتين معا.. رسالة الحظّ النيّر المبتسم تعده بالمجد، بالثراء بالراحة المستديمة، بالتّخلص من مشاغل الجيش المرهقة، ورسالةَ السلطان التي ترفض الاستقالة وتدعوه للاستمرار والبقاء في عمله المقدس.

صمّم على مقابلة السلطان وإعادة الكرة من جديد.. إن الأمر جد في

حياته الخاصة.. ومنعطف مهم في مسيرته العمرية. وفي الغد تلقى من الباب العالي خبر الإذن بزيارة قصر "يِلْدِيز". كان السلطان عبد الحميد يراقب دخوله بنَوع من التمعن والتفحص "الفراسي" النافذ.. يقرأ أعماقه ودواخله الملتهبة وهو يقترب بخطواته من كرسي العرش.. تراءَى له في وجهه الممزّق المطعون صورةُ الجيش العثماني المهترئ وهو يعاني نخر الأمراض المزمنة.. شدّ وجذب بين نداء الواجب وثقلة المطامع والأهواء. أعاد شريط حياته السياسية وهو يتسلم مقاليد الخلافة المريضة.. سنوات قضاها في أجواء المؤامرات والدسائس والنعرات العصبية الآكلة. حاول جاهدا منعها.. صدّها.. تفتيتَها.. وقد لبسته روحُ تيار هادر..راعد.. واعد، يروي ضفاف جغرافية الإسلام الممتدة من الماء إلى الماء أزْيَد من ثلاثين سنة.. أنداء ممرعة تنث روحا وريحانا، أمنا وأمانا. لكن رحى التاريخ تدور.. عجلاته غلابة.. الناس يظنّونه منعما في قصوره.. يعتصر اللذائذ.. يكتنز الأصفر الرنان والأحمر الفتّان.. لكَم تمنى لو نعم براحة البال في كوخ بسيط منزوٍ في أعالي جبال "أرارات"، أو في زاوية من زوايا شيخه الروحي "أبي الشامات".. لكنه النداء المقدس.

أفلتت دمعة حرَّى من وجهه التاريخي.. تختزن في ملوحتها وحرارتها كل مواجع الدولة المنهارة والحكم الغابر، لم يبصرها الضابط "مراد بك".. دعاه للجلوس.. تحاورا.. حاول السلطان استلاله من إحساسه المادي الضاغط.. بسَط له من الحجج ما يقنع؛ الواجبُ الجهادي المقدس.. الدولة المتداعية.. المسلمون المستضعفون.. الأطماع الغربية.. أمجاد التاريخ العثماني.. أحلام محمد الفاتح.. عراقة الجيش العثماني.. قوّته الضاربة.. الشهادة.. الجنة.. الخلد... كلمات وكلمات تفور كالأمواه الدافقة، لكن

الأرض السّبخة ترفضها.. تعافها.. تبخّرها بفعل وهج الشواظ الحارق، كان الضابط يعُدّ الدقائق للانعتاق من قيد الخدمة المتعبة، كلمات السلطان لم تحرك فيه ساكنا. كان تمثال شمع كلّسه الإغراء.. لا يمكنه أن يرفض نعمة سِيقت له سوقا.. كرر طلبه ثالثا بنوع من الإصرار المؤدب وهو يقبّل يده.

ألقى عليه السلطان نظرة غاضبة أحرقتْ كل جسور العتاب الرقيق التي نسجها بحواره الحكيم.. قام من كرسيه يذرع الأرض بخطواته المتّئدة.. طال حبل الصمت.. تسارع وجيب قلب الضابط.. دقّات الحذاء السلطاني المتتابعة تطن في أذنيه كهلوسات حلم غامض.. انتظر كلمة الخلاص.. طال الصمت.. طالت النظرات الغاضبة.. السلطان يمارس معه نفسيا فن إذابة الجليد.. إن الصمت يعذبه.. يسلمه لضميره المغيب.. لإيمانه المقيد.. صراع بين دمائه الفائرة ودموعه الحبيسة.. انتفض خائفا مرعوبا من الاستهواء النفسي الذي مارسه السلطان عليه.. كرر طلبه رابعا بصوت راعش يشب فيه آخر ذبالة من توسلاته الملتاعة.. توقفت النظرات.. سكنت الخطوات.. أبصر السلطانَ يحملق في صورة جدارية للجيش العثماني الظافر.. يمسد لِحيته في عصبية غاضبة، لم يتركه السلطان لحبل الصمت كي يلفّ عنقه مرة أخرى.. خاطبه بوجع غاضب مشيحا عنه بوجهه التاريخي: "إنّي أعفيتك، إني أعفيتُك".

خف طليقا من قيده المضني، وامتطى منتشيا قطار الإغراء والإثراء.. يعبر به الرياض.. يكرع اللذات بعمق حواسه الظامئة.. اللذائذ تعتصر.. الفرحة تعرش في قلبه المكدود.. جنانه التي تطل على "البوسفور" يتفيّأ فيها أجمل اللحظات.. ينتهبها انتهابا.. وتتلاشى معها أيام "يِلدِيز" بظلالها المستوخمة الثقيلة.. وتتلاشى شهور الخنادق المرعبة، وسنوات البنادق

الدامية.. كوابيس وكوابيس تتوارى في لجة النسيان الطامي.

ويستفيق من غمراته.. أحداث لا تصدَّق.. يا إلهي!.. الخلافة تتهاوى.. السلطان ينفى وراء الشمس.. وأنصاره يعلقون على أعواد المشانق.. يا إلهي يا إلهي!! وتنتفض أعماقه لتقيء رمادا داكنا خنق منافذ حسه الإيماني.. كلمات السلطان الغاضبة تدوي كصفير ريح تقتلع أعواده اليابسة.. دويها يصم مسامعه.. أعاد شريط الوداع بقصر "بِلدِيز" من جديد.. القصر التاريخي الرابض يزأر جريحا مُدمى في وجهه المصعوق.. قِبابه.. أروقته.. شرفاته.. مشاعله المتناوسة.. كلُّها تدوي منتفضة بكلمات السلطان "إنّي أعفيتك". يا إلهي يا إلهي!! تحاصره أسوار إسطنبول بعذاباتها المريرة خرَّبها الغازي والغزاة.. شاهَد تاريخها مأسورا على أبوابها العتيقة؛ غيّروا معالمها.. وجهها المألوف لديه يستنهضه كي يثأر.. ويقتنص الغزاة بفيلقه الجسور. "آه.. آه يا مدينتي خذلتُك وخذلت بك الإسلام.. آه.. آه.." جلُّ رفاقه في الجيش نُكل بهم.. وأشعل الغازي من رفاتهم شمُوعا تُنير له درب المجد الكاذب.. ارتحلوا شهداء كما تعود الطير إلى أعشاشها السماوية.

إحساسه بطعم "الخيانة" ينغرز في وعيه كنصل حاد جارح.. حاضره الخادع يلملم وينقذف في وجهه كالخرقة البالية.. ماضيه يترنّح باكيا.. تمثَّل له امرأةً ثكلى مَنفوشة الشعر.. متّسخة الملابس.. تنعي زوجَها المغيب في غيابة المجهول.. صرَخ الضابط في ذهول حالم: أنا زوجها الضائع المخدوع.. الغائب المخلوع.. أنا الزائف.. أنا النازف.. أنا.. أنا...

عاودته ذكرى نشيد "الخلاص".. كان مغرما به.. يحتمي بمواويله الشجية حين تقتلعه شجون الحياة "شفاعة يا رسول الله شفاعة شفاعة.."

ورؤوس المريدين تترنح.. والدموع السخينة حبات عقد تطرز جيد القلب الصديّ.. حلَقة المولوية تجتذبه بندواتها وتحليقاتها.. تمنحه الدفءَ.. الوعد.. الخلاص، آه.. آه.. إنه بحاجة إلى جواز سفر.. يضعه قبالة رسول الله.. يخلّصه من المتاهة المخيفة.

قادته خطواته المترنحة إلى باحة مسجد السلطان أحمد التاريخي.. الظلام غشاء كثيف يخفي هواجسه المتوانية.. ذبالة النور تكشف أسرار المكان الغامضة.. استند إلى عموده الأثير لديه.. امتدتْ نظراته إلى الخط الفاصل بين الظلام والنور.. غامت الرؤية.. استطالت الأحجام.. تداخلت الزوايا.. وانسرح الحلم في وعيه الغائب.. وجَد نفسه يقتفي أثر السلطان.. يتابع كلامه.. يطل عليه من كوة وعيه المبصر.. كانت الساحة فسيحة مد البصر.. طبول تدوي.. أعلام تخفق.. جياد تصهل.. السلطان يستعرض الفيالق صحبة رجل مهيب وخلفه يقف أربعة رجال مهيبين.. كل فرق الجيش العثماني الظافر تنتظمها الصفوف.. تحدّق في ذهول صوبَ الرجل "المهيب".. ابتسامته النورانية.. نظراته الحانية.. تلويحاته المشجعة.. تبارك الجميع.. تمنحه الروح والريحان.. والسلطان يعرض عليه الفيالق صفا صفا.. والرجل "المهيب" يبتسم. الفرق تواصل السير.. رفاقه في مقدمتها.. أعلام النصر تطرزها "الشهادتان".. سيوفُهم تتقلقل في أغمادهم.. مدافعهم تزَغرد كل حين.. حناجرهم تدوي بالتكبير.. خطواتهم تسير وفق إيقاع واحد.

أطل من كوة وعيه المبصر.. اللهفة تعتصر قلبه.. انتظر مرور فرقته، طال به الانتظار المملّ.. طابور الفرق يتناقص.. والرجل "المهيب" يبارك.. والسلطان يستعرض.. وتلوح مؤخّرة الجيش.. إنها فرقته.. يا إلهي!!

أعلامها منكوسة.. مدافعها خرساء.. سيوفها صدئة.. خطواتها اضطراب وفوضى.. حناجرها تتشقق عويلا..تتوسل بالرجل "المهيب": "شفاعة يا رسول الله.. شفاعة!". أخذه الدوار.. لفه جلال اللحظة.. تعلق بصره الزائغ بالوجه النبوي المهيب.. أحس كيانه يهتز.. ذراته وخلاياه تندمج في هرمونية الموال الشجي "شفاعة يا رسول الله.. شفاعة.. شفاعة!". أبصر السلطان يقترب من الوجه النبوي المهيب وخلفه وجوه الخلفاء الراشدين المسفرة.. يسر له حديثا هامسا.. يعزز حديثه بالحركات الدالة.. الوجه المهيب يكسوه الغضب.. يتوجه نحوي.. يا إلهي يا إلهي! ماذا أسمع؟

الساحة الواسعة المكتظة تنتفض للنداء النبوي القاصم.. تردده جنباتها.. أصداء تلتوي شعلا مرعدة كاوية تردد في وجع غاضب: "وأنا أعفيتك.. وأنا أعفيتك.. وأنا أعفيتك.. وأنا أعفيتك وأنا.. وأنا.. و..."

(*) كاتب وأديب مغربي، وهذه الأقصوصة مستوحاة من قصة واقعية رواها الشاعر التركي محمد عاكف.

في الطريق إلى الحياة الأبدية

نورالدين طوبجو *

أنتم تعلمون يا أصدقائي بأنني عندما مت كنتم مجتمعين حول فراشي، كانت نظراتكم مسمرة عليّ كما لو كنتم تشاهدون لأول مرة إنسانا يموت، ولكن الحقيقة هي أنكم كنتم تحبونني لأول مرة. أما أنا فقد كنت سعيدا إذ أرى حولي أول اجتماع مفعم بالحب الخالص؛ هذه اللحظة التي لا يحصل عليها الإنسان إلا عندما يكون في طريقه إلى الموت.

كنت عطشا إلى حياة مثالية عندما فارقتكم، ولكنني مع ذلك كنت قد مللت دنياكم المملوءة بالألم والشقاء. كنت تعبا إلى درجة أنني كنت أحس بحاجة إلى أن أنسلخ من الوجود وأن استريح في حضن اللانهاية ألوف السنين. وفي المساء بعد ثلاثة أيام عندما حسبت الأنوار الخافتة حولي نجوما في السماء، وبعد أن ودّعتكم كلكم واحدا واحدا ابتسمتُ للملك الذي حضر ليأخذني.

ومع أنني فارقت بدني إلا أنني حملت معي بعض أحواله. أما أنتم فقد فعلتم بجسدي ما لم يفعل به عندما كنت حيا؛ انحنيتم عليه وبكَيتم، ثم حملتموه على أكتافكم. لم تكونوا ترونني ولكنني كنتُ أراكم. وعندما دفنتموه في التراب الذي جاء منه، أحسست أنه يلقى حياة جديدة لا مثيل لها، كنت أحس بأن جسدي الذي اختلط بالتراب لا يزال يحمل مني

أشياء وأشياء، كان يحس من هذا اللقاء لذة لم يتذوقها أبدا في الحياة. أما أنتم فقد كنتم تبكون عليّ لأنكم لم تكونوا تعلمون إلى أين ذهبت، أما أنا فقد عشت في الحياة لمثل هذا الموت، وقد وصلت إلى أملي. عندما كنت بينكم كنت مثلكم أخشى الموت لأنني كنت أحبكم وكنت أكره أن أفارقكم جميعا. وعندما انحنى عليّ ملك الموت لم تلاحظوا الابتسامة التي ارتسمت على وجهي، وبدوري لم أستطع أن أقول لكم شيئا عن حالي.

لقاء الأحبة

ولم يستغرق انتقالي من دنياكم إلا لحظة قصيرة، وبعد أن دفن جسدي قلت للرسول: "إلى أين نحن ذاهبون؟" لم يقل لي: "إلى حيث تريد" وإنما أجابني قائلا: "إلى حيث كنتَ قد أردتَ" ثم أضاف: "إن الحياة التي عشتها لم تكن إلا تهيئة لك لحياتك الحقيقية هنا، وما ستلقى هنا إلا الأشياء التي طلَبتها في تلك الحياة". سألته: "وهل أجد كل ما كنت أطلبه؟" قال: "ستلقى كل ما كنت تطلبه بإيمان وحبّ ووجد، كل ما كنت تطلبه بحق". فرغبت أن أكون مع والديّ ومع روحين عزيزين توفيا قبلي. كيف بلّغتُ وأفهمتُ هذه الرغبة؟ لستُ أدري. غير أنه أجابني في التو: "ولكنك معهم الآن". ملكتني الحيرة، لم أكن أصدق عيني، لقد كنت معهم. نعم كانوا هم أنفسهم. إن الوسائل التي تأكدت وعرفتهم بواسطتها كانت أقوى من الوسائل الدنيوية ألف مرة؛ كانوا في أجمل وأحب أحوالهم، في الصورة التي لا يمكن رؤيتها إلا في الأحلام. ولكن أكنت أرى بالعين وأسمع بالأذن وألمس باليد؟ كلا. إن وسائل معرفتي أصبحت مَلَكَةً وقابلية عندي؛ بهذه الملكة كنت أرى أقوى من رؤية العين، أسمع أقوى من سماع الأذن، ألمس أقوى من لمس اليد.

المحكمة الكبرى

سألت رفيقي: "ومتى سنقف أمام المحكمة الكبرى؟" قال: "نحن الآن هناك. انظر حواليك!". كنا في ميدان كبير ليست له نهاية، وكانت القوافل الإنسانية بمختلف هوياتها وأحوالها تملأ جوانبه، وفي الوسط كانت فسحة كبيرة حيث كانت جميع القوافل الإنسانية وجميع الأفراد يأتون هناك ويحاسبون فردا فردا. كان ينادى على كل فرد عندما يحين دوره للمثول أمام المحكمة حيث كان يعترف بلسانه وبوجهه وبلحمه وبجلده ما اقترفه في الحياة الدنيا.لم تكن هناك حاجة إلى شهود، إذ إن كل شيء وكل ذرة كانت تنطق عندما يحين وقت الكلام، بل إن الحادثة نفسها والفعل نفسه كانا ينطقان. وعندما جاء دوري دُعيت إلى مكان الحساب الذي كنت أرقبه برهبة وإشفاق. تكلمت ذنوبي نفسها، أما أنا فقد خجلت، وأحاط بي جميع الذين كنت قد أسأت إليهم، وكان أكثر خجلي من الذين ظلمتهم. آه! كم كنت ظالما دون أن أدري. لقد كنت أحسب نفسي رحيما رقيق القلب. كم كنت مقترفا الظلم بلساني إن لم يكن بيدي، وبقلبي إن لم يكن بلساني. ومن حسرتي وقسوة شعور الخجل الذي أحسست به في حضور الذين ظلمتهم. تمنيت لو أنني ظُلمت في الدنيا ولم أظلِم، أو لو أنني قُطعت إربا إربا ولم أظلم. أما صاحب المحكمة الكبرى فقد كان يرى ويشاهد حالي. وضع ذنوبي في كفة الميزان، ووضع وجدي ورحمتي في الكفة الأخرى، فرجحت الأخيرة ونالتني المغفرة الكبرى.

عالَم الأبدية

وعندما بدأت رحلة الحياة الأبدية في جنان الخلود رأيت الجميع هنا يعيشون في أجمل وفي أحب الأحوال إلى قلبي. كان الإنسان يتكلم

مع جميع الأشياء، وجميع الأشياء تتكلم مع الإنسان. هناك إنسان متمدد وهو يعانق جبلا، وآخر يسيل مع الماء ويتأمله في الوقت نفسه. بعضهم ملتحفون بألوان الشفق الورديّ، وقافلة أخرى فتحت أجنحتها نحو السحاب جالسة على عين كبيرة نابعة من حضن غابة عبقة الأرجاء، يشاهدون جميع الوجوه الجميلة ويستنشقون عبير الزهور جميعها أمام المياه الباردة النابعة من الأعماق وكأنها أنوار تفور. أمامهم جميع الوجوه التي حلموا برؤيتها، فحققوا آمالهم بالصحبة الكريمة التي تمنوها طوال حياتهم، فوصلوا إلى اللذة الأبدية لجميع الأشياء التي أحبوها وتمنوها والتي ذاقوا منها -ولو قليلا- ورغبوا فيها في الحياة الدنيا. لقد استطاعوا في الدنيا أن يجدوا طريقا لنقل أجسادهم إلى دنيا الروح، وأن ينظروا إلى عالم الحقائق وإن كان من كوة ضيقة. كان هؤلاء أرواح الذين لم تكن عبادتهم عن خوف ولا عن عادة، وإنما كانت عن تأمل وعن حب وعن وجد وعشق. قد هيأوا أنفسهم لهذا اليوم عن علم، فجميع أفعالهم وحركاتهم في الدنيا كانت عبادة. والحقيقة أن الحياة الأبدية نتيجة ضرورية للتهيؤ المستمر الدائم في الحياة الدنيا، وليست منظرا ينكشف في لحظة واحدة خاطفة من وراء الأستار. والإنسان يستمر على الوتيرة نفسها التي انتقل بها من هناك. إن الآثار التي أنجزناها حتى موتنا ما هي إلا جذور للشجرة التي ستستمر بعد الموت، أما أغصان وثمار هذه الشجرة فتابعة لنوع هذه الشجرة التي زرعناها في الحياة. ويستمر الروح في النضوج من النقطة التي كان قد وصل إليها قُبيل الموت؛ والعبرة هي في الوصول الصحيح إلى الموت، أو بتعبير أحد الحكماء: "معرفة كيفية الموت".

أما الاشياء والأمور التي رأيتها في عالم الأرواح التي وصلتْ إلى

شاطئ السلامة فهي تَجلُّ عن الوصف. رأيت الرجال والجبال يتسامرون. رأيت الجداول وهي تتكلم مع الناس وتهب لهم مذاق جميع الأشربة دون أن تكون هناك حاجة إلى الشرب. رأيت الأرواح التي بلغت أمنياتها تسبح في أودية واسعة برذاذ المياه التي كانت كتل الثلوج الناصعة ترشها عليهم. رأيت الغابات التي لم تطأها من الأزل أقدام الآثمين تتماوج في أرجائها وتمتزج ببعضها أنوار الشموس الخضراء والوردية مستغرقة في تأمل آلاف العوالم. رأيت الشموس التي تذكر كل واحدة منها روحا صالحا يعيش في عوالم ثملة من الوجد والعشق، في عوالم لها وضوح العلم وحرارة الحب ووسعة الأمل.

عجائب الجنة

أحيانا كانت رؤية جمال وجه تُغرق هذا العالم بأجمعه في الجمال، وأحيانا كان ميلاد ذكرى جليلة يغمر جميع الأرجاء بضياء الشموس؛ إذ إن أي عبادة في الدنيا تجعل كل شيء أبديا. وعالم الجنة هذا مكان للذين كانوا يجدون الطمأنينة وراحة البال في أقل الأشياء، وليس للذين تكثر مطاليبهم ولا تنتهي. رأيت الصابرين يتبوأون هنا أعلى الدرجات. وكنت قد تذوقت نماذج من هذا الجمال -وإن كان بمقياس أقل- في الحياة الدنيا. والحقيقة أن أسعد لحظات حياتي كانت لحظات التأمل الذي كان مظهرا خارجيا للطمأنينة الروحية عندي. رأيت هنا الرحمة المنهمرة من الأعالي التي لا نهاية لها إلى الأرض التي لا نهاية لها. حضرت مجالس الصحبة بين الأنبياء والأولياء. شاهدت حكمة قوانين الكون التي كانت المعجزة الوحيدة التي تعرفونها في دنياكم، وشاهدت توزيع العدالة الإلهية هنا في ميدان القدَر. ومع أنكم كنتم غافلين عنها فإن هذه العدالة

كانت مقسّمة بأكمل وجه في الدنيا. تأملت بكل شوق ولذة وجه "الخير" الذي هو وراء كل عمل حق. علمت أنّ الدنيا -التي كنتم تحسبونها دارا للشقاء والألم- ما هي إلا ممر للبصيرة وللحكمة. استرحت على الجسر الموصل من الروح إلى الله. تخلصت من الوحدة القاتلة. تخلصت من هذه الوحدة التي كانت أكبر عذاب لي في الحياة الدنيا، والتي كانت تمزقني بين كل شيء وبين كل موجود، والتي كانت تفصلني عن نفسي. لم يكن لي هناك من بينكم صديق حقيقي. عشت وحيدا بينكم، أسيرا لهذا العذاب. كنت وحيدا في الليل وفي النهار، في طفولتي وعلى فراش الموت، في غرفتي وبين الناس. عندما خُدعت وعندما مُدحت، في الغربة وبين أحبّائي. كانت الوحدة هي الداء الذي لم أجد له دواء في الدنيا، لكأنني عشت لها وتمنيت الموت دائما للخلاص منها. هذا هو الداء الذي تخلصت منه هنا.

الشوق إلى الله

وأخيرا اشتقت إلى "الرب" الذي مكنني من المثول بين يديه مرات في الدنيا دون عذاب ولا انتظار. سألت رفيقي المَلَك الذي ظهر بجانبي في تلك اللحظة: "أين هو؟" قال: "ولكن ألا تراه؟" قلت: "إن هذه الموجودات التي أراها هي نفسها التي كنت أراها في الدنيا ولكنها الآن في وضع الكمال وفي أشكالها الأبدية المطلقة، ولكن أين صاحبها؟ إنّ لكل مُلك صاحبًا، وأنا الآن أبحث عن صاحب هذا الملك". ولكن دليلي أسكتني -وكأنه قلب تعرض لإهانة- بلسان تمتزج فيه الرحمة مع الحيرة والتهديد قائلا: "أأنت مجنون!!... أيمكن أن يكون هناك شيء "سواه"؟ وأمام هذا التنبيه رجعت إلى نفسي: أجل! في كل شيء هو هو هو،لم أكن منتبها

من قبل. ففي كل موجود كانت تطل أعين قدرته. لقد كنت في الحضرة العظمى، اهتززت بعنف قائلا: "يا رب!"، قيل: "تكلم!".. ليس بكلمات، ليس كإنسان، بل كشعور لانهائيّ وكقدرة لانهائية، لا زمان عنده ولا مكان لسواه؛ لا جديد ولا قديم، لا مولود ولا ميت، لا غير ولا شبيه، لا بادئ ولا منتهي، لا سبب ولا نتيجة، لا "لا"، ولا شك. كنت في سعادة وفي فرحة كفرحة من يولد ولادة أبدية، فرحة لا يوجد مثلها أبدا في الدنيا. بلا صوت وبلا اهتزاز وبلا سبب، كأن جميع المخلوقات كانت تُخلق في تلك اللحظة، وكأن كل فرحة هذا الخلق تملأ وتفيض من نفسي. في أي حال كنت؟ أين كنت؟ نسيت كل هذا، لأن جميع الأشياء كانت قد انمحت. كنت قد غبت عن نفسي. في هذا العالم الذي انمحى فيه الزمان والمكان. كان هناك شيء واحد... شيء حقيقي واحد فقط: "هو".

(*) من كبار المفكرين والأدباء في تركيا، توفي سنة ١٩٧٥. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.

كأني أكلت

جمال أمين*

كان شريط المساجد اللامع عالقا في جدار ذهنه المشبع بالنفاذ الروحي. الشيخ إسماعيل أفندي حمامة مسجد كما يقول عنه تلاميذه الخلص.

كيانه الجامع، ذرات فطرته البيضاء، طائره الإيماني المحلق في الأعالي، تسكن كلها مآذن وقباب إسطنبول المتوهجة بالندى والطهر. المساجد السلطانية العملاقة تستبطن أحاسيسه الدافئة... أذانها المطلول المبغوم... ابتهالاتها الندية المتموجة... تراتيلها المعرشة بالألحان المرشوشة الغضة. ويلج باحاتها الفسيحة مدَّ البصر، بواجهاتها الرخامية المصقولة، فيتوثب قلبه الرهيف، وتتلبسه أحاسيس سلطانية عظيمة، لعظام بناة، وسواعد متوضئة، ومحاميل حجارة منتقاة بعناية، و"سنان" المعلم العظيم يرشها بلمسات فنه الساحر المتكلم.

كان يسبح بباصريه مذهولا وهو يلج الصدفات المكنونة بسر السماء، وتمتصه محاريبها الفارهة... أعمدتها الأسطوانية الرابضة... قبابها الأهرامية السماوية... لغات كثر تناجي قلبه المدهوش... تنبعث بنمنماتها الساحرة: الضوء المتكسر المشعث المتماوج، اللون الطاووسي السابغ، الخط المعشوشب الفتان، الزجاج الفسيفسائي المزركش، رجلاه لا تقويان

على حمل عراجين عشقه المتهدل "بالدهش" و"العطش". كم قضى ليالي قمراء في باحة مسجد "الفاتح"، قرب الضريح الرخامي الجاثم في ظلال الشجر الفينان، يستل أحلامه المتوثبة، يناجي عرائسها المخبوءة.

إن ما يقلقه ويمضه هو ضيق ذات يده، وانحباس حياته في دارة العطايا النزرة المتقطعة. منذ نزوحه المبكر إلى إسطنبول رفقة شيخه الروحي وهو يعيش في ظلال التكايا والزوايا، بين همهمات الذاكرين، وتوسلات الزائرين، ورباطات المريدين، إلى أن ورث (سر) المشيخة الروحية بزاويته المتواضعة، فازدادت أعباؤه أثقالا من إشراف على مواسم تعبدية خاصة، واستقبال للعطايا والهبات المتنوعة، واحتفاء بالضيوف والزوار الوافدين، وإنفاقات متواصلة على تلك المراسيم والموالد. فما يأتي به نهر اليوم يبتلعه بحر الغد. والدائرة تدور، والأيام تدول، ورحى العمر تطحن الرغائب الحسان، وظلالها تبهت وتصفر بفعل اليبوسة الزاحفة، وصراع محموم بدأ يشتعل ويتلظى بين عقله السؤول وقلبه الملول، بين طموحه الأخروي وانجذابه الدنيوي، بين رسوم العبادة وعبادة الرسوم، بين ولائم الطاعة وطاعة الولائم... بين وبين وبين... دوامة عاشها وهو يتربع على عرش المشيخة بين أتباعه ومريديه.

قال عنه مريده (ن): "إن شيخنا إسماعيل أصابه ما أصاب شيخنا جلال الدين الرومي مع التبريزي من خلوة عن الأتباع والزوار وسياحة انفرادية في مساجد اسطنبول العتيقة". وشاهده مريده (ش) وهو يتسلق قمة (شامليجا) قبل الغروب، مقتعدا مكانه المعلوم قبالة المساجد/الأهرامات مذهولا... مشدوها... ملتاعا.

وراقبه صديقه الدرويش (ع) وهو يطوف بمساجد السليمانية والفاتح

والسلطان أحمد، لا تطرف له عين ولا يغمض له جفن، ولا تكل له قدم، ثم يستلقي في أفنائها متأملا سارحا يعب من جمالها المجسد الضافي. وقالت عنه زوجته (ر): "إن زوجي قد أصابه الذهول والذبول منذ تلك الليلة التي قضاها معتكفا في مسجد الفاتح منتصف رجب الماضي".

كان إسماعيل أفندي مستلقيا في باحة مسجد الفاتح، وهو يستعيد شريط حياته الحافل، ورشاش زبد تلك "الرؤيا" الغريبة يمتلك مجامع قلبه وروحه. في نفس هذا المكان المقدس وفي مثل هذه الساعة الليلية الواعدة... شاهد في الحلم خيال محمد الفاتح قادما من المحراب الرخامي... ينتصب قبالته بلباسه الأبيض الناصع... عطور سماوية تفعم أنفه، صوته الندي يسر في أذنيه حديثا نبويا مأثورا "من بنى مسجدا لله ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتا في الجنة"، ثم يغيب خياله وابتسامة وضيئة ترسم دوائر النور على وجهه الوضاح. يغيب وتغيب منذ تلك اللحظة الفاصلة رغائبه التي استطالت مثل الأظافر حتى غدت مخالب تخدش إيمانه الأخروي.

إن ما يقلقه ويمضه هو ضيق ذات يده بفعل الإسراف الزائد، والعطايا المهدورة في الولائم والضيافات. جبال من الجليد العائم الكاذب تحجزه عن التحديق والتحليق. وفي مثل لحظة كلمح بالبصر قرر -وذكرى الفاتح لا تطرف عينها في خياله المشبوب- بناء مسجد -ولو كمفحص قطاة- يكون أساسا ركينا لبيت لا محدود في الجنان... "يا لروعة التقابل الشهودي الغيبي ينث شهدا وحلاوة من كلام الرسول المعلم ﷺ -قال ذلك محدثا نفسه- بيت لله فوق هذا الكوكب الهاوي، وبيت لك في الملأ الأعلى، أيّ "وجبة" مجزية يمنحها لك هذا الحديث، أيّ مصير خالد

يمنحه لك هذا الألق النبوي... لو وَضَعْتَ سنوات الزوايا والتكايا في كفة أخرى لطاشت بالأولى لثقلها الأخروي).

تذكر في غمرة هذا التحول النفسي/الكياني "سر" عظمة السلاطين الأوائل... سر امتدادهم التاريخي الخصيب في حنايا المعمور وثنيا الدهور... إنها المساجد/الأهرامات التي تنتشر في ضفاف البسفور كأزهار الأقحوان متفتحة باسمة قبالة السماء المغسولة. "إنك يا إسماعيل ستنافس عظمتهم الأخروية بعد أن غلبوك في عظمتهم الدنيوية، ستنشر ذكرك بهذا المجد الموعود في عالم الآخرة، وهي خير وأبقى". هكذا حدث نفسه القلقة.

قَرَّرَ مصمما في غمار تحولاته سلوك رياضة نفسية جديدة تحقق له حلم حياته الأخروية. إنها "لعبة الوهم" المتبادل بينه وبين نفسه، وهم التشبع بلذائذ الأطعمة والأشربة، وهم الموائد الممدودة الحافلة في المواسم المكرورة والضيافات المتجددة. قرر تحطيم وهم "التشبع" بمعول إيمانه الأخروي... "الاستغناء" و"الادخار" هما شعاره الجديد في رحلته الجبلية الجديدة، وهو يتوقل حزون النفس وذراها.

قالت عنه زوجته: "كلما أخبرت زوجي بأطايب الطعام التي سَتُشْتَرَى له، رفض ذلك ورد ثلثيها وأبقى على الثلث فقط، مدخرا نقودها في صندوق خشبي مرددا جملة غريبة (كأني أكلت... كأني أكلت...)".

وقال عنه جاره البقال (ف): "كلما همَّ الشيخ إسماعيل باقتناء فواكه الصيف النضيجة كعادته، أسرع بإرجاعها كمن لدغته أفعى قاتلة مرددا كلاما غريبا (كأني أكلت... كأني أكلت)". وقال عنه مريدوه: "إن طقس (الانجذاب) الذي جلل شيخنا في سنواته الأخيرة أصابه بالذبول والذهول، فلا هم له إلا الادخار في ذالك الصندوق الخشبي العتيق مرددا جملته

المأثورة (كأني أكلت .. كأني أكلت)".

وقال عن البنّاء (ك): "كان الشيخ إسماعيل يتعهد بناء مسجده الصغير بالمراقبة اليومية، بل كان يساهم بوضع لبناته الصخرية بيديه المتوضئتين. وكلما استطال البناء أبصرت وجهه الوضاح يستنير بنور سماوي غريب كأنه فلق الصبح الأزهر".

وحين استتم الحلم الأخروي شكله الصخري المستدير، واستكمل زينته الزخرفية المتواضعة في طابقيه الصغيرين، عقد فيه الشيخ إسماعيل أولى حلقاته الندية معلنا لطلابه وزواره أنه قرر تسميته جامع "كأني أكلت"

(*) كاتب وأديب / المغرب. قصة حقيقية جرت في عهد الدولة العثمانية.

وا اِبناه... لتكن أنت الفداء!

نور الدين صواش*

جلس على مقعده وراء المكتب وراح يفكّر بالشخصيات التي سيدعوها إلى حفل التخرّج للمدرسة؛ ينبغي أن يكون حفلا رائعًا يترك في نفوس الحاضرين أثرا لا يُنسى.. شرع بكتابة أسماء المدعوين على بطاقات الدعوة: "السيد رئيس الوزراء الموقر"، ثم كتب أسماء أصحاب المناصب الأخرى واحدًا بعد الآخر. ليس بالأمد البعيد، بل منذ بضعة أشهر فقط فاز تلاميذه بميدالية ذهبية في مسابقة الفيزياء الدولية. منح نفسه فترة استراحة قصيرة ليشرب كوبا من الشاي، وما لبث أن اجتذبته أطياف من الذكريات.

كان قد تخرّج من الجامعة بتقدير ممتازٍ. كم كانت أمُّه سعيدة بنجاحه، أمه التي انتظرت ذلك اليوم بفارغ الصبر منذ سنوات ليقف إلى جانبها ويخفف عنها آلام الوحدة. فمنذ أن ارتحل والدُه إلى الرفيق الأعلى وهي تعاني من قسوة الوحدة في منزل ولدها الأكبر بسبب المعاملة السيئة التي تَلْقاها من زوجته. لكنها دفنت آلامها في قلبها واعتصمت بالصبر الجميل منتظرة اليوم الذي تزول فيه كل هذه المآسي. "ولدي مثال للوفاء، وسوف أزوّجه بفتاة جميلة ومؤدَّبة، بعدها نعيش معا حياة سعيدة هنيئة". كل شيء سيتغير بعودة ولدها. لن تتساقط براعم الأمل مبكرا بعد اليوم، ولن تنحدر دموع الحزن من عينيها، ولن تناديها نجوم الغربة في السماء كل ليلة، ولن

تسمع النغمات الحزينة في المذياع. ستهبّ نسمات السعادة والأمل على ربوع قلبها بعد قدوم ولدها العزيز.

...

سمع دقات خفيفة على الباب. ها هو الشاي قد حضر. ارتشف رشفة، ثم عاد إلى ذكرياته الحبيبة، ارتسمت صورة أمه أمام عينَيه. كم كانت سعيدة عندما قدّم لها شهادة الجامعة، ترقرقت عيناها بدموع الفرَح، وضمّته إلى صدرها بحنان "أخيرا عدت إلى أمك يا ولدي".

لكن كيف يقول لها إنه عُيّن مدرسا في إحدى دول آسيا الوسطى التركيّة. ألن يحطم ذلك كل أحلامها؟ عليه أن يخبرها، ولكن كيف؟ وهل يحتمل قلبُها الرقيق المجروح؟ إلا أنه لا بد من ذلك. لا بد أن يُقنع والدته بأنّ آلاف الأعين تنتظره في تلك الأراضي البعيدة. عليه أن يسرع لسَقي تلك البقاع الظامئة مع من ذهبوا قبله من الشباب التربويين الأطهار... عليه أن يذهب حاملا معه رسالة الرحمة والحب ليغرسها في القلوب الضائعة الحائرة... عليه أن يذهب حاملا معه القلَم والكتاب والإيمان والفضيلة. لا بد من تلبية نداء "الأستاذ المربّي" الذي تشبَّع بأفكاره النبيلة. كم سكب "الأستاذ المربّي" من الدموع من أجل أن يبعث الروح من جديد في تلك الأراضي الميتة، وكم أُغمي عليه وهو يدعو إلى الهجرة لنشر نور الحياة في تلك الديار المظلمة. لا بدّ من الهجرة... ألم يهاجر أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرجاء العالم لنَفْس الغاية النبيلة؟!

استغرق في تفكيره ثلاثة أيام. كيف يقول ذلك لأمه يا تُرى؟ حاول مرّات ومرات، ولكن بدون جدوى. الأيام مرّت بسرعة وموعد السفر أصبح وشيكا. غدًا يسافر إلى إسطنبول ومنها إلى آسيا الوسطى. جلس إلى

جانبها برفق، ونظر إليها بحنان مشوب بشيء من القلَق. أحسّت بأنّ شيئا خطيرا سيقوله، أطرق إلى الأرض وقد اغرَورقت عيناه بالدموع وعلقت كلماته في حلقه، ثم ارتمى في حجرها مجهشا بالبكاء "أمي الحبيبة، يا أعزَّ إنسان في الوجود...أُمّاه..." رفع رأسه ونظر إليها مليا ثم تمتم بعبارات متقطّعة "عليّ أن أذهب يا أماه... عليّ أن أذهب إلى آسيا الوسطى..."

لم يستطع أن يقول سوى هذه الكلمات... خيّم على الغرفة صمت كئيب، بدَت الأم مذهولة غير مصدقة... لكن بعد لحظات صحَت من ذهولها، وربّتت على كتفه بحنان وسط دموع ساخنة تنحدر على خدَّيها. كانت "صَبريّة هَانم" من الذين يعرفون معنى الرسالة التي يؤديها ولدها ورفاقه. فقالت وهي تمسح دموعها "صَحِبتْك السلامة يا ولدي، وسأصبر على فراقك وعلى إساءة زوجة أخيك، فاطمئنّ بالاً".

في المساء الذي ودعت فلذة كبدها إلى إسطنبول سكبت دموعا غزيرة. كانت قد جهزت حقيبته بنفسها، وأعدت له شيئا من الطعام ليأكله أثناء الطريق. لقد تركها وديعة عند الله وليس عند زوجة أخيه. ظلّت تُلوّح له يدها حتى غاب في الأفق البعيد.

وفي صباح اليوم التالي وقبل أن يركب الطائرة اتصل بها لآخر مرة. كانت تبكي... لكن من الفرح هذه المرة "اذهب يا بني رافقتك السلامة، لقد حدَث شيء لا يصدق! هذا الصباح جاءتني زوجةُ أخيك وارتمت بين يدي باكية تعتذر إليّ وتطلب مني السماح: أرجوكِ سامحيني يا أمي سامحيني... قالت أتاها الليلة الحبيبُ المصطفى ﷺ في المنام وحذّرها بشأني وطلب منها ألا تُحزنني... فلا تقلق بشأني يا بنيّ، اذهب صحبَتك السلامة..."

...

وبعد بضع سنوات عاد لزيارة أمه فزوَّجته من فتاة تناسبه وتُسعده. قالت "حسبي أن رأيتُك سعيدًا يا ولدي.. ولكن إذا رزقكما اللهُ ولدًا فلا تَحرماني من رؤيته، لأن قلبي لن يصبر على فراقكما وفراق حفيدي بعد الآن". وفي العام التالي جاؤوا لزيارتها وقد بلغ الطفل شهرين من العمر.

مضت الأيام بسرعة... بأفراحها ومآسيها... قضى أعواما طويلة في البلاد التي اعتبرها وطنه الثاني... تعلَّم في هذه الأراضي النائية معنى الحياة، ومعنى خدمة الإنسانية، ومعنى غاية الوجود، ومعنى العمل لكسب مرضاة الخالق سبحانه؛ أحبّ الناس في الله وخفق قلبه لله.. وبعد أن أصبح مديرًا عمل بجدّ، وسهِر على تعليم تلاميذه وتربيتهم. لقد كانوا كل شيء بالنسبة له في الحياة، فنال ثقة أهل البلد، وحصلت مدرسته على جوائز عديدة... تنفّس الصعداء... "الحمد لله، كل ذلك من فضل ربّي".

كان التلاميذ يلعبون بمرَح في ساحة المدرسة وأصواتهم الجميلة تملأ الفضاء. ولكن... ما لتلك الأصوات المرحة تحولت فجأة إلى صرخات مدوية!..

سمع طرَقات قلقةً على الباب مع صوت مذعور لتلميذ خائف "أستاذ!.. النجدة!.." انتفض من مكانه، "أستاذ!.. أستاذ!.. أحد التلاميذ... سقط من الطابق الثاني!..."

أظلم العالم في عينيه، شعر كأن الدنيا تدور، انحلت مفاصله وكاد يقع على الأرض، لكنه استجمع قواه وخرج من الغرفة مسرعا يرتطم بجدران المدرسة. أخذت هواجس الرحمة والقلق تصطرع في داخله. "يا إلهي!.. كيف حدث ذلك؟ ماذا لو مات الولد!؟ يا رب، لقد وثق الناس بنا ومنحونا حبهم وائتمنونا على أبنائهم فلم نخيّب ظنهم. ماذا لو أصاب

المسكين مكروه؟ ماذا أفعل لو أوقفوا عمل المدرسة بحجة الإهمال... يا رب احفظنا..."

أسرع ناحية المكان الذي تجمّع فيه التلاميذ. وما إن رأوه حتى أفسحوا له الطريق، وإذا ببَدَن صغير وقد ارتمى على الأرض دون حَراك وسط دماء تسيل من رأسه. مدّ يديه المرتعشتين ببطء، واحتضن الطفل بحنان، ورفع رأسه بعناية... فعرفه... "الحمد لله!.."

انحدرت الدموع على خدَّيه بلا إرادة منه.. شعر كأن شيئا ما يعتصر قلبه... ضمّه إلى صدره بحرقة وتَمتم بألم "ولدي!.." نعم... إنه ابنه وفلذة كبِده... جس نبضات قلبه الصغير ولكن...

في تلك اللحظة كانت صبرية هانم مشغولة بخياطة ثوب لحفيدها المحبوب... لم تكن تعرف بأفول نجمه المتلألئ في سماء الغربة... كانت شاردة الذهن... وفجأة وخزت الإبرة إصبعها فصرخت بأنين صامت "آه...".

(*) كاتب تركي. قصة حقيقية وقعت في إحدى دول آسيا الوسطى. وهي مترجمة عن مجلة "سيزينتي" التركية بتصرف.

مناجاة أُمّ

أمين مانيسالي*

سمحوا لي بالبقاء إلى جانب ولدي لكوني طبيبة لا لكوني أمًّا. كان الأطفال وبينهم ولدي تحت العناية الخاصة في جناح مخصص لهم. كنت أسمع بكاءهم وأنينهم من المكان الذي أقف فيه. أذكر أن ولدي استغرق في النوم عندما كان الطبيب يفحصه بعد أن نظر إليّ نظرة المستغيث ناطقا عبارة "أماه" بصوت يشبه الأنين.

قال الطبيب متأسفا "إنه الشلل، لكنه لم ينتشر في كل الجسم بعد". انعقد لساني وعجزت عن الكلام. لا أكاد أصدق، مصاب بالشلل... لا، هذا مستحيل. تجمدت جميع خلايا بدني وما عدت أستطيع التفكير. نسيت أني طبيبة، انقبض صدري وأظلمت الدنيا في عيني، قلت وقد ألمّ بي الخوف والقلق "أنت متأكد؟ لم ينتشر بعد، أليس كذلك؟" "ليس بعد، وأرجو ألا ينتشر".

نظر إليّ بإشفاق "أقترح عليك أن تذهبي إلى البيت لتأخذي قسطا من الراحة يا دكتورة". كانت الساعة تشير إلى ما بعد منتصف الليل. قررت أن أسمع كلام الدكتور وأذهب إلى البيت لأستريح قليلا. كان الوقوف على رجليّ منذ الساعة الخامسة فجرا قد أرهقني كثيرا. كنت قد أمضيت طيلة يومي في المستشفى. أعرف أنه ليس بوسعي سوى الصبر والانتظار.

نظرت بحنان إلى وجه ولدي. أردت أن أضمه إلى صدري وأقبّله، ولكن حالته ما سمحت لي بذلك. فخرجت من الغرفة مسرعة.

شعرت بوحدة قاسية عندما فتحت الباب ودلفت إلى البيت. كان الحزن والصمت يخيمان على كل أطراف الغرف. لم أشأ أن أخبر زوجي بمرض ولدنا لكي لا أقلقه فيضطر إلى ترك عمله والمكوث إلى جانبنا. وكيف أخبره ولم تتأكد النتيجة بعد. لم أفقد الأمل أبدا. أعرف أنه سيُشفى.. نعم، أرجو أن يُشفى. غدا يتضح كل شيء، وليس لدي سوى الاعتصام بالصبر.

تناولت دواء منوّمًا ونمت. وبعد أن أمضيت بضع ساعات أتقلب في الفراش مراوحة بين النوم واليقظة انتفضت على رنين الهاتف. "هل حدث شيء لولدي يا ترى!؟". كانت الساعة تشير إلى الرابعة فجرا. رفعت السماعة بسرعة، وإذا بصوت امرأة مرتبكة وقد تعثرت الكلمات في فمها "دكتور! أريد الدكتور، أرجوكم ساعدوني!"

تنفست الصعداء.. ولدِي بخير إذن. عندما فهمت المرأةُ أني الطبيبة سكنت، وبدأت تشرح لي حالة طفلها، فأدركت للتو أنه شبح الشلل. سجلت عنوانها وطمأنتها بقدومي حالا. وقبل الخروج من البيت اتصلت بالمستشفى لأطمئن على ولدي. فقيل لي إنه لم يتغير فيه شيء.

كانت الأزقة خالية من البشر، والهدوء قد ضرب أطنابه في كل مكان. وصلت إلى ضواحي المدينة حيث المنازل البسيطة المتناثرة دون انتظام. وبعد قليل أوقفت سيارتي، فإذا بامرأة تحمل في يدها مصباحا تهرول نحو السيارة. استغاثت من أعماق قلبها بصوت ملؤه الحزن والأسى "أسرعي يا دكتورة، أرجوك أسرعي!".

نظرت إلى وجهها المبلل بالدموع. فلم أستطع التمييز بين ما إذا كانت

شابة أم مسنة. صُدمتُ عندما دخلت بيتها المؤلف من غرفة واحدة فقط. يا إلهي، ما رأيت بيتا بئيسا مثل هذا البيت. لا أكاد أصدق ما رأيته، ثلاثة أطفال يشبهون الهياكل العظمية من شدة الهزال وقد التفوا حول طاولة خالية. كانت الغرفة مظلمة عدا جزء يسير قرب المصباح. وبينما كنت أنظر إلى الأطفال بإشفاق، طرق سمعي أنين عميق من إحدى زوايا الغرفة المظلمة. وما أن أمعنت النظر في تلك الناحية حتى رأيت طفلا قد قارب الخامسة من العمر يتألم ويئن تحت لحاف رث قديم.

وعندما قمت بفحصه أدركت أنه واقع في شرك شلل الأطفال. طلبت من الأم أن تنتظرني لحظات، وخرجت من البيت مسرعة أبحث عن مكان أُجري منه اتصالا هاتفيا. اتصلت بالمستشفى وطلبت سيارة إسعاف على الفور.

بعد ربع ساعة عدت إلى الأطفال مرة أخرى وفحصتهم واحدا تلو الآخر. فانبسطت أساريري وكدت أطير من الفرح عندما وجدتهم غير مصابين بعد. وفجأة راح الطفل المريض يبكي وسط آلام وأنين يمزق القلب. أمسكت الأم بيدي متسائلة، فما استطعت إخفاء الحقيقة عنها، "طفلك مريض جدا، ولكن سنبذل كل ما في وسعنا حتى يشفى، لا تقلقي".

اندهشتُ حينما رأيتها تبتسم بوقار وتلاطف شعر طفلها المسكين بحنان وتلتفت إليّ قائلة "فلنتضرع إلى الله إذن، هل تتضرعين معنا يا دكتورة". لم يحدث أن طرح عليّ أحد من زبائني مثل هذا الاقتراح. شعرت أن هذه السيدة تعرف ما لا أعرفه. فاستجبت لطلبها فورا... الأطفال والأم وأنا... جثونا جميعا على الأرض وشرعنا نبتهل إلى الرحمة اللانهائية. كانت الأم تدعو بصوت ملؤه الاستسلام والعبودية الكاملة. أحسست بمشاعر سامية تملأ قلبي وتهز وجداني، شعرت بأن الكون كله يشاركنا في دعائنا.

لاحت في ذهني بغتة ممرات المستشفى الباردة وصورة ولدي الحبيب. أحسست كأنني تجاوزت الزمان والمسافات، وشعرت أني إلى جانب ولدي المسكين حقا. كان ولدي يبتسم إليّ في ذلك العالم العجيب الذي دخلت فيه.

صحوت من تأملاتي على صوت الأم المستسلمة للشافي المتعالي... يا إلهي، ما هذا الخشوع... ما هذا الطهر والنقاء... ما هذا السمو الأبدي... فقلت لحظتها من كل قلبي "استجب دعاءنا يا رب".

عندما أنهت الأم دعاءها كان طفلها المريض قد استغرق في نوم عميق وغشيته سكينة عجيبة. قالت وقد تلألأت عيناها بالأمل والإيمان "أرأيت يا دكتورة، لقد استجاب الله دعاءنا".

لم أجد كلمة أقولها. ظل الطفل نائما أثناء نقله إلى سيارة الإسعاف. ولما خرجتُ من ذلك المنزل المتواضع تركتُ حقيبة نقودي كلها لتلك الأم العابدة التي منحتني ثروة لا تقدر بثمن، وقلت لها "سوف أعود ليلة الغد مرة ثانية".

اتجهتُ نحو السيارة وقد لفّتني سكينة إلهية... رفعتُ بصري إلى السماء وقد فاض قلبي حمدا لله... وبعد قليل بدت في الأفق الشرقي طلائع اليوم الجديد، فاتجهت صوب المستشفى. فما عدت أشعر بأي قلق أو خوف تجاه ولدي، إذ كأن عبئا ثقيلا قد زال عن قلبي الليلة، وكأن صوتا لَدُنّيّا يهمس في أذني بأن ولدي سيبتسم إليّ من جديد.

(*) كاتب تركي. الترجمة عن التركية: نور الدين صواش.

إلى جبل قاف

محمد أويار*

حان وقت الرحيل... لم يكن من السهل عليه مفارقة أهله وأصدقائه، ولا سيما أمه. نظر إليها لآخر مرة، فلمح الدموع تنحدر على خديها.. أمسك بيدها في وداعة وحنان وقبّل جبينها بحرارة، قالت له:

- رافقتك السلامة، أستودعك الله يا ولدي.

صعد المدرّس الشاب الطائرة دون أن يلتفت إلى الوراء، وما لبث أن هاجت عواطفه وراحت دموعه تتساقط بغزارة.. وداعًا أيتها الأم العزيزة، وداعًا أيها الوطن الحبيب... كلمات أوقدت لهيب الغربة في كبده، فتمتم "طوبى للغرباء.." إنها لمسؤولية عظمى.. إنها لرحلة مقدسة، رحلة إلى ما وراء الوراء. بعد لحظات أقلعت الطائرة محلقة في السماء.

كان يركب الطائرة لأول مرة، ويفارق وطنه لأول مرة. نظر إلى السحب المتراكمة من النافذة الصغيرة وغرق في عالم من التأمل. تذكر الجبال الشامخة التي كانت جدته تحكي له عنها في طفولته: "كان يا ما كان في قديم الزمان، كان في الأراضي البعيدة جبل شامخ يدعى جبل "قاف".. ولا يمكن الوصول إليه إلا على ظهر طائر العنقاء..." جبل قاف وطائر العنقاء... ماذا كانت تعني جدته بهاتين الكلمتين يا ترى؟ بدأ يتصور أن جبل قاف هي بلاد القفقاس، وطائر العنقاء هي الطائرة التي تقلّه إليها.

إذن، إنه مسافر إلى ديار القصص والأحلام ليصبح أحد أبطالها. خفق قلبه لهذه الفكرة ثم قال في نفسه: "لا شيء يجعلنا عظماء غير خدمتنا لرسالتنا الإيمانية وسعينا لنيل مرضاة ربنا". تلألأت عيناه الواسعتان وشعر بسعادة لا توصف. تذكر أنه يحمل في أعماقه رسالة مقدسة. ولكن هل يستطيع أن يوفيها حقها ويقدم إلى هؤلاء الناس كل ما في قلبه من حب وحنان؟! ولمَ لا؟! إنه سيقول لهم:

"مرحبا.. جئتكم بتحية الزهور والورود من تركيا.. جئتكم لإعادة بناء أخوّتنا من جديد.. جئتكم لنقيم صرح أرواحنا معًا وننشر روح المحبة والإيمان والفضيلة في كل أنحاء العالم..."

شعر ببرد قارس وراح يرتجف عند أول خطوة خطاها خارج الطائرة.. لم يكن معتادا على مثل هذه الأجواء. كانت عاصمة القفقاس مغمورة بالثلوج وقد ارتدت حلتها البيضاء الناصعة.. خرج من المطار المتواضع وأخذ يسير في شوارع المدينة. إنه لا يعرف أحدا هنا.. قسوة البرد لا تطاق.. احترز ألا ينزلق فيقع على الجليد الذي يغطي كثيرا من الأماكن في الأرصفة. لا بد من الذهاب إلى فندق. رأى مجموعة من الشباب، اقترب منهم وحاول أن يتفاهم معهم بالتركية ولكن دون جدوى بسبب اختلاف اللهجة. حاول بكل ما لديه من جهد أن يفهمهم أنه أتى من تركيا ويبحث عن فندق. وما أن نطق بكلمة "تركيا"حتى احتضنه بعضهم بشوق الأخ الذي عثر على أخيه بعد فراق سنين. رافقوه إلى فندق متواضع جدا وعبارات السرور تعلو وجوههم وتنعكس على تصرفاتهم المرحبة. قضى ليلة مزعجة لم يستطع فيها النوم من شدة البرد والرطوبة.

وفي صباح اليوم التالي كانت الجرافات تزيل الثلوج المتراكمة على

الطرق. لاحظ أن أغلب الأبنية في هذه المدينة ذات طابقين، وأزقتها يشبه بعضها بعضا. رأى في أغلب الميادين والشوارع والأزقة تماثيل "لينين" وصور شخصيات هامة وعبارات وطنية حماسية على الجدران، ثم جنود الروس المسلحين... كانت الصورة العامة بالنسبة له كالحة ورمادية بعض الشيء، إذ لا تزال رموز الشيوعية تسيطر على كل مكان في هذا البلد؛ بينما هو كان لا يحمل سلاحا غير سلاح العلم والأخوة... كان ذهنه منشغلا بإيجاد سبيل لبناء مدرسة هنا.. لإيقاد شعلة إيمانية يستدفئ بها أبناء هذا البلد الشقيق.

سأل عن القصر الرئاسي، ولما علم مكانه اتجه إليه فورا. في البداية أبى الجنود أن يدخلوه المبنى، لكن لما علموا أنه قادم من تركيا أطلقوا شعارات الفرح وأبلغوا أمره إلى الرئيس مباشرة. استقبله الرئيس أمام باب غرفته بترحاب حار. إنه من النادر جدا أن يزور هذه الديار البعيدة أحد من تركيا.

- أتيتم من تركيا إذن.. أهلا بكم..

انبسطت أسارير عاصم وحل السرور قلبه:

- سيدي الرئيس، جئتكم بتحية إخوانكم من تركيا..

قدّم للرئيس العلَم التركي مع بعض الهدايا التي جاء بها معه. تأثر الرئيس كثيرا وغلبته عواطفه واغرورقت عيناه بالدموع:

- شكرا جزيلا، أنت إنسان طيب وأخ كريم.

تفحص الهدايا بدقة ثم استنشق رائحتها:

- إنها رائحة تركيا، نعم تركيا..

أخرج "عاصم" من حقيبته مصحفا وقدمه إلى الرئيس، فنهض مندهشا:

- ما هذا؟!

- المصحف الشريف.

ترقرقت الدموع في عينيه.. تناول المصحف بأدب جمّ وراح يقبّله بشوق عارم. لاذ بالصمت لحظات وقد ضم المصحف إلى صدره بحب.. نظر إلى عاصم بسعادة كبيرة:

- أتيتنا بروحنا يا أخي. أعدت إلينا سراجنا الذي فقدناه منذ عقود. أذكر وأنا طفل صغير أن جدتي كانت تقرأ القرآن خفية. لا أعرف كيف أشكرك، كان جدي يحدثنا عن تركيا كثيرا.. مدينة إسطنبول مباركة بالنسبة لنا.. قل لي أيها الأخ العزيز ما الذي أتى بك إلى هذه الديار النائية؟

- أتيت لأقيم مدرسة يا سيدي.

- مدرسة!؟

- نعم، مدرسة. أريد أن أقيم مدرسة على غرار مدارسنا المنتشرة في كل أنحاء تركيا.

- لإقامة مدرسة؟! أتيت لوحدك!..

- سأبدأ العمل لوحدي، لكن سيلحق بي من تركيا مئات المتطوعين من المدرسين ورجال الأعمال. سيدي، لقد افترقنا عن بعضنا طيلة سبعين عاما بسبب الشيوعية، لكن انتهت الغربة، وحان وقت إقامة الجسور من جديد، وتتويج أخوتنا بالعلم والفضيلة والإيمان.

قال الرئيس وقد بلغ منه التأثر مبلغا:

- ما أجمل حديثك يا أخي. أتيت.. لوحدك.. من أجلنا!.. ودون مقابل؟!. لك كل ما تريد. افعل ما شئت وأينما شئت.

وبعد يومين شرع عاصم بالعمل لإقامة المدرسة في البناية التي

خصصها له الرئيس.. راح يعمل بكل ما في وسعه من جهد وطاقة.. عليه أن ينتهي من العمل خلال شهر ويبدأ بالتدريس.

وبعد شهر كامل تم تسجيل خمسين طالبا، ثم وصلت المعدات المدرسية والمستلزمات المطلوبة الأخرى. وهكذا فتحت أولى مدارس المحبة في ديار القفقاس. كان عاصم يهتم بالتدريس وشؤون المدرسة في آن واحد، فلا يدري كيف يمضي الوقت، لكنها كانت أسعد أيام حياته على الإطلاق رغم كثرة المشاغل والإرهاق. وفي أحد الأيام جاءه إسماعيل، أحد طلابه المجتهدين ودعاه إلى زيارة أهله في القرية. لم يستطع عاصم أن يرفض دعوة تلميذه الأثير:

- ولكن كيف سنذهب؟

- على عربة الجليد يا أستاذ.

كان الثلج والجليد يغمران كل مكان.. والضباب يغطي قمم الجبال.. لأول مرة يركب عربة جليد، شعر بالخوف والقلق في البداية ثم بالبرد الشديد الذي أوشك أن يجمد يديه وقدميه.

- كم يستغرق الطريق إلى القرية؟

- ساعتين...

- ماذا!.. إسماعيل، كل يوم تقطع هذه المسافة لتأتي إلى المدرسة؟

- أجل.. إنها رغبة أهلي.

كان الطريق موحشا وكان الظلام يلقي بظلاله الكئيبة على كل شيء مع شدة البرد. بعد ساعتين قال إسماعيل:

- وصلنا، ها هي قريتنا.

وأشار إلى أضواء القرية التي تتلألأ في جوف الظلام. شعر عاصم أن

يديه ورجليه قد تخدّرتا تماما من البرد. فما استطاع النزول من العربة إلا بمساعدة تلميذه.

فُتح الباب ببطء وظهرت امرأة طاعنة في السن متلفعة بوشاح من صوف غليظ تمسك بيدها مصباحا، قالت مبتسمة:

- أهلا أهلا تفضلوا.

كانت جدران غرفة الجلوس مغطاة بالسجاجيد التي تبعث دفئا محببا في النفوس والأبدان. جلس عاصم على أريكة متواضعة.. كان يتألم من خدر رجليه ويديه. جلست العجوز قبالته وراحت تقرب المصباح من وجهه لتراه جيدا... فقال لها إسماعيل وهو يبتسم:

- جدتي إنه معلمي الأستاذ عاصم.

- من أين؟

- من تركيا

تجمدت في مكانها دون حراك، ارتجفت يداها:

- جدتي... ما بك، هل أنت بخير؟!

أمعنت النظر مرة ثانية في حيرة ممزوجة بالدهشة وقد شحب وجهها واضطربت حركاتها وامتلأت عيناها بالدموع. تمتمت بتأثر عميق:

- أنا أعرف هذا الوجه...

انتفض عاصم باستغراب، بينما برزت الدهشة على ملامح حفيدها أيضا.

- نعم أعرفه.. إنه هو.. هو..

أرخى الصمت سدوله على أطراف البيت لحظات. فلم تستطع الجدة الوقوف أكثر على قدميها، فجلست دون أن يفارق بصرها وجه عاصم..

تنهدت في حسرة:

- لم نستطع مقاومتهم، كانوا مسلحين، يقتلون كل من يعترض طريقهم على الفور. لم تنمحِ تلك الأيام في ذهني أبدا.. أيام الانقلاب الشيوعي في عهد "لينين". كنت صغيرة وكان الوقت بعد منتصف الليل. استغرقت في نوم لذيذ مع صوت أمي التي كانت تحكي لي قصة الأمير الذي يأتي من وراء جبل قاف على طائر العنقاء لينقذنا من المآسي التي نعاني منها. وإذا بصرخات أقلقتني من النوم، رأيت الدبابات تدوس كل ما يعترضها في الأزقة، والجنود يطلقون الرصاص على أبناء القرية. وضعونا في عربة قطار للحيوانات نساء ورجالا صغارا وكبارا...

ابتلعت ريقها وسكتت ثم ركزت بصرها على الجدار واستطردت:

- ما نسيت تلك الليلة يا ولدي. القطار يسير، والثلج يغمر الأرض، والبرد قارس. كنت أبكي من الجوع. مات أعمامي وماتت جدتي وبعض الأطفال بسبب البرد والجوع والتعذيب. "نحن في المنفى يا حبيبتي، وسوف نعود إلى وطننا يوما"، هكذا كانت أمي تقول لي. كانت الشيوعية والمنفى نفس الشيء بالنسبة لي.

انعقدت الكلمات في حلقها:

- وبعد سنوات مات أبي وأمي، وبقيت وحيدة في هذه الحياة. ولكن ما نسيت كلام أمي أبدا "سوف نعود إلى وطننا يوما". عزمتُ على الهروب فهربت. وبعد عناء كبير وصلت إلى وطني فاستنشقت رائحة ترابه بشوق وشكرت المولى.. كانت القرية خرابا ومنزلنا أنقاضا، وكنت مرهقة جدا فانكمشت في زاوية واستغرقت في نوم عميق.. وإذا برسول الله ﷺ قد أتاني في المنام.. لا أعرف كيف أصف جماله لكم.. لم أشبع من النظر

إلى وجهه المضيء، مسح رأسي بيده الشريفة قائلا:

- لا تقلقي، سينتهي هذا الظلم يوما يا ابنتي.

فقلت بألم:

- متى يا رسول الله؟ ولماذا لم يأت أشقّاؤنا المسلمون لمساعدتنا؟

- إنهم في وضع أسوأ منكم، ومن الصعب أن يأتوا. ولكن سوف يأتي أحفادهم يوما ما.

وفجأة ظهر شاب إلى جانبه، طويل القامة جميل الوجه يشع النور من جميع أطرافه، فأشار الرسول ﷺ إليه قائلا:

- هذا هو أول من يأتي لمساعدتكم. لكنه سيأتي من بلاد حارة، فلا يستطيع تحمل برد دياركم. فأسرعي بنسج جوربين له وقفازين، وقدّميها إليه هدية عندما يأتي.

"لم أنس ذلك الوجه أبدا..."

قربت المصباح من وجه عاصم والدموع تهطل من عينيها:

- كيف أنسى الوجه الذي كان يضيء عند رسول الله ﷺ مثل الشمس.

لم يتمالك عاصم نفسه وانهمرت دموعه هو الآخر. هرولت الجدة إلى الغرفة المجاورة وفتحت صندوقا قديما وأخرجت منه جوربين وقفازين ثم رجعت مسرعة ومدتها إلى عاصم وعيناها تشعان بسعادة فائقة:

- هيا البسها، إنها لك، إنها ستحميك من البرد. فهي انتظرت قدومك منذ خمسين عاما يا ولدي.

أخذ عاصم هديته العزيزة منها ولبسها وقد غمرته مشاعر غامضة.. ازداد حيرة عندما رأى أنها على مقاس قدميه ويديه تماما.

امتلأ قلبه بالسعادة والإيمان، فما عاد يشعر بالبرد ولا بالغربة، أحس

بدفء الرسالة السامية التي يؤديها والعناية النبوية والرعاية الإلهية التي ترعاه هو ورفاقه الأبطال أنى كانوا.

(*) كاتب تركي. الترجمة عن التركية: نور الدين صواش. وهي قصة حقيقية وقعت في إحدى دول آسيا الوسطى التركية.

وا صلاتاه!

عبد الله دميرجي*

ولّى ضوء النهار، وزحف الظلام إلى غرفته الضيقة المتواضعة، وهو متمدد على الأريكة يستريح. سمع صوتا رحيما من الغرفة المجاورة:

- أعتمت الدنيا.. فات الوقت.. صلاة المغرب يا ولدي!..

كانت جدّته في غروب عمرها، ورغم ذلك كانت حريصة كل الحرص على أداء صلاتها في أوقاتها.. بينما حفيدها الشاب اليافع تعود ألا يقوم للصلاة إلاّ قبيل انقضاء وقتها معلّلاً ذلك باستغراقة في الدراسة. وثب من مكانه بقلَق:

- آآه.. فات الوقت!..

فتوضأ بسرعة ثم وقف إلى الصلاة دون أن يجفف وجهه وذراعيه.. أتم صلاته على عجل ثم اتّكأ على الأريكة وراح يتمتم بالأوراد..

حلّ عليه التعب، فوضع رأسه على ذراعه على طرف الأريكة واستمر في التسبيح. وما لبث أن ران عليه النعاس وملك عينيه..

...

ساحة تعج بالخلائق.. رؤوس ناظرة، وقلوب واجفة، وأبصار خاشعة، وأصوات صاخبة متداخلة.. لا يدري أحد ماذا يُصنع به وما تكون عاقبته!. جال ببصره هنا وهناك ثم أرسل نظراته إلى بعيد فرأى منصة عالية يجلس عليها بضعة نفر في ملابس بيضاء.. وإذا بهتاف يدوّي:

- لمن الملك اليوم.. لله الواحد القهار..

قال في غاية من الدهشة والاستغراب وقلبه يخفق خفقا:

- يا إلهي، أين أنا؟!..

وإذا بموجة شرية عارمة تأخذه في دوامتها وتجعله يفيق من ذهوله.. وإذا بمنادٍ ينادي من مكان بعيد:

- مراد بن سميّة...

تلفّت يمنة ويسرة ثم قال بصعوبة:

- أأأنا!

تفصّد جبينه عرقا وتلاحقت أنفاسه وشعر بالاختناق.. فأمسكه حارسان عملاقان من ذراعَيه وساقاه إلى المنصّة..

بدأت رحلة الحساب التي تبدو بلا نهاية.. كلما طُرح عليه سؤال خاب سعيه ولم يتحقق ما كان يأمله.. تصبّب العرق من جبينه تصببا. طالت المحكمة واشتد الكرب، وعيناه مركوزتان على الميزان باضطراب وقلق.. ثقُل عمله تارة وخفّ تارة أخرى.. أمل الفوزَ تارة وخابت آماله تارة أخرى.. وأخيرًا.. رجحت سيئاته على حسناته، وصدر الحكم:

- خذوه إلى جهنم..

تحول العالم في عينه إلى كتلة من السواد الكالح.. لا يكاد يصدق ما يسمعه. شعر بإنهاك رهيب فأرخى يديه وحدّق بعينين مرعوبتين..

- ماذا!.. إلى جهنم!! كلاّ!!..

تذكر صلاته التي كان يؤديها في اللحظات الأخيرة من وقتها.. فاغرورقت عيناه وفاضت دموعه حزنا وندما. قال بحرقة قلب:

- يا لحماقتي وغبائي.. يا لمصيبتي وبلائي!..

أقبل الزبانية عليه.. فأشاح بيده في رعب وأطلق صيحات استرحام خرقت الفضاء. جعل يستغيث بربه، يدعوه ويناشده. فما عاد ينطق سوى بكلمتَي "الرحمة" و"الصلاة".. راح يلتفت إلى الوراء علّ الله يتداركه برحمته، وعسى صلاته تدركه فتشفع له وتنقذه.. ولكن هيهات هيهات..

سحَبه الزبانية إلى جهنم سحبًا. وكلما اقترب منها خدش سمعَه أصوات العذاب الذي تقشعرّ منه الجلود. التفت وراءه مرة أخرى مستغيثًا بالله راجيا رحمته.. وما إن وصل إلى شفير جهنم حتى صاح وصرخ بكل ما أوتي من قوة:

- أما سعيتُ جاهدًا في خدمة ديني مطيعًا أوامر ربي!؟ أما أدّيتُ دَوري في سبيل عقيدتي!؟ أما وهبتُ نفسي لخدمة الإنسانية والرسالة الربانية!؟ أما صلّيت!؟ رحماك يا رب!..

انتهى كل شيء.. خسر الدنيا والآخرة.. وأخيرًا، دفعه الزبانية إلى النار الحامية.. وبينما كان يتدحرج إلى قعرها وإذا بيد تمسكه وتجذبه إلى الأعلى وتخرجه من بين ألسنة النيران الملتهبة..

- يا إلهي ماذا يجري!!؟..

رفع رأسه وإذا برجل ذي لحية ورداء بيضاوين يفيض النور من حوله، يقف أمامه:

- لا تخف!..

حدّق فيه باندهاش وهو يلهث:

- مَن أنت؟!

- أنا صلاتك!..

- أنقذتَني في آخر لحظة!.. ما الذي أخّرك عني؟ كادت النار تبتلعني!.

هز رأسه وقال باستغراب:

- أما تذكر أنك كنتَ تؤخرني إلى اللحظات الأخيرة من وقتي؟..

...

انتفض من غفوته على صوت ندي ربّاني.. إنه أذان العشاء.. رفع رأسه وجبينه يتفصد عرقا.. وثب من مكانه وهرع إلى مكان الوضوء..

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: نور الدين صواش.

الانتصار الأخير

عمر فاروق كولدرن*

أقبل هذا المساء على المدينة المغمورة بالثلوج موحشا كئيبا.. وألقى عليها مع قساوة البرد وشاحا أسود حزيناً.. الغيوم السوداء تخنق الضوء والنور.. صمتٌ كالح.. هدوء مخيم على الشوارع.. وإذا بحافلة البلدية تقف بفرملة مزعجة تخدش الآذان.. نزل وهو شارد الذهن.. رفع رأسه ودار بنظراته الحزينة هنا وهناك.. وقف لحظات ثم أخذ يسير في طريقه رويداً رويداً..

الأمر هذه المرة جد مختلف.. شحب وجهه وتندت عيناه بالدموع.. تنهد ثم تمتم في أسى:

- إنا لله وإنا إليه راجعون!..

دَق الجرسَ.. فتحت زوجته الباب والقلق العميق بادٍ على وجهها.. ركزت نظراتها في وجهه الشاحب آملة أن يخبرها عما جرى معه اليوم.. نظر إليها وابتسم ابتسامة باهتة ودخل بهدوء.. توقعت أن الأمر ليس على ما يرام!.. وما إن رأى أطفاله حتى احتضنهم وضمهم إلى صدره بشوق وقبّلهم بحرارة وكأنه يودّع.. توجهت زوجته "وفاء" نحو المطبخ لتحضير العشاء وقد احتل الضيق صدرها.

وخلال تناولهم الطعام كان "صابر" معتصما بالصمت وغارقا في

التفكير.. لم يمازح أولاده ويداعبهم، لم يسألهم عن يومهم في المدرسة هذه المرة.. وعندما كانت وفاء تجمع أطباق الطعام من فوق المائدة ملأ جميع أطراف الغرف صوت ندي.. أذان العشاء يُرفع.. نهض صابر من مكانه وتوجه إلى المغسلة ليتوضأ.. انزوى في غرفة كان قد جعلها مسجدا في بيته.. وبعد لحظات وقف وأهله إلى الصلاة في جماعة.. وقف باستسلام خاشعاً متضرعاً.. ارتجف صوته وتساقطت دموعه على خديه واحدة إثر الأخرى.. لم يعد يشعر بنفسه أو بما حوله.. كان يوقن أن الله معه وقريب منه جداً.. وبعد الأوراد والتسبيحات قام أولاده فقبّلوا يده ثم ذهبوا إلى غرفهم، عندها سددت وفاء نظراتها إليه وقالت بصوت خافت:

- ما الأمر يا عزيزي، لستَ طبيعيا اليوم؟!..

- اطمئني أنا بخير الحمد لله..

- هل ذهبت إلى المستشفى؟

- نعم، ذهبت!..

- وماذا قال لك الدكتور؟!..

- لم يقل شيئاً مهماً.

اجتاحتها موجة من الضيق.. وحط على قلبها حزن عميق أسود.. دارت بنظراتها الحزينة في جنبات الغرفة وقد تشبعت عيناها بالدموع.. عرفت أن حالة زوجها ليست جيدة هذه المرة.. اقتربت منه ثم جلست إلى جواره بتأدب وأسندت رأسها على كتفه:

- أرجوك يا عزيزي لا تخف عني شيئاً..

كان لا يريد أن يحزنها أكثر، ولا يريد أن يبين عن همومه واضطرابه.. ولكن..

قال وعيناه على المكتبة:

- قال لي الدكتور بأن مرضي انتقل إلى الرئة.

- إلى الرئة!؟..

- نعم، ولكن لا تقلقي!.. لكل داء دواء.. والشافي هو الله!..

كان يدرك أن الأمر جد خطر، وأن ليس لهذا المرض دواء.. لقد نصحه الدكتور بأن يستريح جيداً ولا يتعب نفسه لمدة ثلاثة أشهر ثم يعود إليه.. آمن بأن المرض الذي انتابه هو تقدير إلهي، ولا اعتراض لحكم الله.. كان يعرف معنى التوكل معرفة حقيقية.. قام وخطا نحو المكتبة وتناول منها المصحف الشريف.. وراح يتلو سورة الكهف.. قالت وكلها آذان صاغية لما يتلو:

- ولـمَ سورة الكهف!.. ولـمَ لا نتابع تلاوتنا من المكان الذي وقفنا عنده؟!..

- قرأتُ في حديث شريف للنبي صلى الله عليه وسلم أنه إذا قرئت هذه السورة ليلة الجمعة كانت دواء لكل داء.. وإني أؤمن من صميم قلبي أنه الصادق المصدوق وأن أقواله دواء لكل مرض وشفاء لكل مريض بإذن الله تعالى..

صمت لحظات، ثم أخذ يحدثها عن اليقين العميق مستشهدا على ذلك بهذه القصة...

- لقد أصاب قحط قاتل قرية من القرى. فلم يبق عند أهلها قطرة ماء يشربونها أو يسقون بها دوابهم.. لم يجدوا سبيلا سوى الدعاء إلى المولى عز وجل.. احتشدوا رجالا ونساءً، صغاراً وكباراً، جمعوا دوابهم وخرجوا إلى البراري والقفار راجين من الله أن يغيثهم .. إمامُ القرية يدعو والأهالي

يؤَمّنون، يستغفر فيستغفرون، يوحّد فيوحّدون.. وما هي إلا دقائق حتى تراكمت السحب وأمطرت عليهم السماء مدراراً.. فتبلل الجميع إلا فتاة صغيرة.. آمنت إيمانا يقينا بنزول المطر عند خروجها من القرية، فأخذت معها مظلة كي تحميها من البلل وقطرات المطر..

ثم قال:

- ونحن الآن يا عزيزتي في أمس الحاجة إلى الدعاء..

منذ ذلك اليوم راح صابر ووفاء يتلوان سورة الكهف كل ليلة جمعة.. وينايان ربهما بقلب خاشع، وإيمان تام في غسق الليالي.. طرقا باب الشافي سبحانه بإلحاح وتضرعا إليه باستمرار..

وبعد ثلاثة أشهر وعندما ذهب ووفاء إلى الطبيب لآخر مرة، كان الحزن قد أرخى سدوله عليهما بأنواع الهموم والاضطرابات.. ألم يكن مرض بلا دواء؟! إذن لماذا الأمل والرجاء؟!.. قدمت الممرضة نتائج التحليل إلى الطبيب.. تناولها وراح يجول بنظراته فيها دون أمل.. صمت طويل ومثير.. وفجأة أشرقت أسارير الطبيب وحدق بعينين مذهولتين متعجبتين.. كانت النتائج كلها إيجابية.. وقد توقف المرض وتراجع.. قال وهو مبهور الأنفاس:

- يا إلهي!؟.. لا أصدق ما أراه!.. توقف المرض! كيف حصل ذلك؟..

كلمات بعثت البهجة والضياء في وجه صابر ووفاء، فتألّقت عيناهما بوميض مشرق. فتمتم صابر:

- الحمد لله.. هذا من فضل ربي العظيم..

(*) كاتب وأديب تركي. الترجمة عن التركية: نور الدين صواش.

الثالثة إلا عشر دقائق

محمد ساجد أرواسي*

هتفت وهي تنزل السلم مسرعة:

- حسنًا!.. حسنًا!.. أتيتك!

الظاهر أن طارق الباب كان على عجل!... لأنه ما إن لمس مطرقة الباب لم يدع الطَّرْق... كان يطرق باستمرار... وعندما فتحت الحاجّة حسيبة الباب بقلق ممزوج بالغضب، ذهلت ولم تصدق عينيها:

- جميل!!..

لفظتْ اسم ابنها في صرخة نداء من بين شفتيها...

...

كانت العمة حسيبة قد ودّعت فلذة كبدها جميل إلى "سيبيريا" مدرّسًا قبل ستة أشهر، ولم يجُلْ في خيالها أنه سيعود هكذا مبكرًا.

وقبل ذهابه إلى سيبيريا كانت قد انتظرته أعواما وأعواما بنافذ الصبر لينهي دراسته الجامعية. فبينما هي تأمل أن تنقضي أيام الفراق وتتحقق آمالها الحلوة فيه، إذا به يفاجئها بقوله:

- يجب أن أذهب... يجب أن أذهب يا أمي!.. عليّ أن أكرّس عمري من أجل هدف إنساني!..وعليك أنت أن تهبي ابنك لهذا الهدف، مثلما فعل أسلافنا، فوهبوا أعمارهم وثرواتهم وأبناءهم.

فحقّ فيها ما قيل:

"فارَقَتْه لم تكن عالمة أنّ يوم الملتقى يوم اللّقاء"

...

هكذا هي امرأة الأناضول.. رمز التضحية والبراءة والصفاء... فكلّما استمعت إليه لاحت لها بوارق الحق في كلامه، قالت له:

- اذهب يا بني!..

ودّعته كالأمهات اللواتي أرسلن أبناءهن للدفاع عن الوطن من محطة "بِيلَجِكْ"، قائلة:

- اذهب يا بني!.. اذهب.

فذهب إلى سيبيريا القارسة البرد التي ما لبثت حتى تحولت في عزيمته إلى أكثر الأنسام عذوبة ودفئاً.

ولكن في المساء الأخير قبيل ذهاب ابنها، وكان رأس ابنها في حجرها، تداعب شعر رأسه كما كانت تفعل عندما كان طفلاً فتحت صندوق عرسها وأخرجت منه ساعة بسلسلة وقدمتها له قائلة:

- خذ يا بني!.. هذه الساعة ذكرى من والدك، ورثها هو من والده... ستتذكر أمك وستدعو لأبيك كلما نظرت إليها..

قبّل يدي أمه ومسح وجهه بيديها:

- وهل يمكن أن أنساكِ يا أمي؟!.

ثم نهض وأخرج ساعة دقاقة من حقيبته:

- ما دام الأمر هكذا... إذن أترُك لك ساعتي هذه... ليست ساعة اعتيادية يا أمي!.. إنها تدق مع دقات قلبي...

كان جميل قد أضاف ثلاث حلقات إلى الساعة. كان هناك سهم متّجه

من كل حلقة نحو مركز الساعة. في الحلقة الأولى كانت توجد كلمة "الفجر" وفي الثانية كلمة "الضحى" وفي الثالثة حرف "ت"[1] فقط. كانت هذه الحلقات موجودة على الساعة وحسب الأوقات.

فتح عينيه على جو جديد من الحياة، لذا فما إن يصحو في الفجر ويصلي حتى يعيّر ساعته على حلقة الضحى ثم على حرف "ت". شرح هذا لأمه ثم قال لها:

- اعملي أنت الشيء نفسه يا أماه!!.. وادْعي لي!

ثم حدثها عن أشياء كثيرة...

أيقظته أمه في ساعة صلاة الفجر وودعته.

...

سافر إلى سيبيريا كأنه فارس على صهوة جواد من نور ينطلق في الظلام مودعا أمه في الفجر... ينطلق إلى أماكن لم تر بعد نور الشمس ولم يلمسها بعد شعاعها الذي يحيي الموات. وبينما كانت تتوقع أن تتأخر هذه العودة إذا بها تراه أمامها. وكما تفعل كل أمّ فقد فتحت ذراعيها إلى أقصى ما تستطيع واحتضنته...

فتحت عينيها على غرفة مظلمة، فصحتْ من رؤياها... تقلبت في فراشها ببطء وهي تتنهد قائلة: "آه يا بني!" كانت الساعة تشير إلى وقت حلقة "ت"، تمتمت بوهن وهي تضغط على زر الساعة:

- هذه الليلة لم تبق لي حاجة إليكِ... لقد أيقظني صاحبكِ.

قامت وتوضأت... وعندما فرشت سجادتها ألقت نظرة على الساعة... كان مِيلاَ الدقائق والساعات متوقفين، وكانت الساعة تشير إلى الساعة الثالثة إلا عشر دقائق. تناولت الساعة وتمعّنت فيها... عجباً! كانت الساعة

متوقفة... وبدون أن تشعر، ودون أن تَدري السبب هتفت:

- آه يا بني!.. كيف عرفت أن الساعة متوقفة فقمت بإيقاظي؟!!..

وقفت خاشعة للصلاة... كانت في حالة روحية غريبة... تضرعت وقرأت الأدعية حتى الصباح.

...

بعد أيام دُق بابها دقات وجلة ومترددة... نزلت ودرَجُ البيت القديم يصرّ تحت قدميها، وفتحت الباب... كان هناك شابّان وضيئا الوجه... قال الشاب الطويل بصوت خافت:

- هل أنت العمّة حسيبة؟!

- أجل!

- هل نستطيع الدخول يا عمة حسيبة؟.. نحن أصدقاء "جميل".

لمعت عينا العمة حسيبة. قالت بفرحة غامرة:

- طبعًا!.. طبعا!.. تفضلوا يا أولادي!..

ثم أردفت بانفعال:

- "جميل"... هل أتى "جميل" أيضاً؟

- كلا!.. لم يأت جميل يا عمة حسيبة.

- ولكن هذه الحقيبة في يدك هي حقيبته!.

نكّس كلاهما نظرهما إلى الأرض... ربّاه!.. كم كان هذا الأمر صعبًا.. تمالك أحدهما نفسه بصعوبة وقال:

- هذه الحقيبة حقيبته يا عمة حسيبة! ولكنه...

لم يستطع أن يكمل الجملة... تحولت الكلمات عنده إلى دموع... فهِمتْ العمة حسيبة... وهل هناك أحد يفهم أفضل من الأم لغةَ الدموع؟

تهاوت في مكانها... مَن يدري كم استمر ذرفها للدموع... ثم قالت أخيراً:

- "إنا لله وإنا إليه راجعون"...

ارتسم التوكل وتسليم أمرها لله خطوطا على وجهها. سألت:

- كيف حدث هذا؟

- مرض قليلا.. ذهبنا به إلى الطبيب... كان يسير نحو الشفاء... في تلك الأمسية أيضًا كان وضعه جيدًا حتى إن طلابه جاؤوا لزيارته، وبعد أن غادروا قال:

- أعتقد أنني تعبت...

وذهب إلى غرفته. نام ولم يستيقظ.

- وأين نعشه؟..

قالت هذا، وأخذتها نوبة أخرى من البكاء.

مدّ الشاب الطويل بعض الأوراق إليها وقال:

- وجَدْنا في الصباح هذه الأوراق في جانبه... وكأنه أحسّ بدنو أجله... كان يصرّ في هذه الأوراق على دفنه في اليوم الثاني في البلدة التي تُوفّي فيها... لم نجد بُدّاً من تنفيذ وصيته فقمنا بدفنه في حديقة مدرستنا... أي في مكان يستطيع فيه سماع أصوات طلابه الذين أحبهم كثيرًا.

ثم أخرج من جيبه ساعةً بسلسلة وظرفَ رسالة، وقدّمهما للعمة حسيبة قائلا:

- لقد ترك هذه الأغراض لكِ يا عمة... هذه ساعة ابنك، وهذه هي الرسالة الأخيرة التي كتبها لك.

لفّتْ العمة حسيبة السلسلة على ذراعها وأخذت الساعة في راحة يدها. ثم -وبيد مرتعشة- أخذت الرسالة... قربتها من شفتيها وقبلتها ثم

بكت طويلا. وعلى الرغم من حالها المؤلم فقد حافظت على رقّتها وأدبها الجم وقالت لهما:

- أرجو المعذرة منكما...

ثم قامت وذهبت إلى الأريكة الطويلة التي جلست عليها مع ابنها لآخر مرة... كان ابنها قد وضع رأسه في حجرها... تذكرت كلماته الأخيرة لها:

- لم يبق لي يا أمي سوى الدعاء لك... أما أنا، فمُهمّتي تقديم خدماتي حتى الرمَق الأخير... وربما سنجلس معا يا أمي في الجنة على أريكة من الزمرّد، وسأضَع هناك رأسي في حجرك وستلمسين شعري وتنشدين لي أغنية من أغاني الأطفال... وما أجمل أن يضع ابن رأسه في حجر أمه ليسمع أغنيتها الحنونة الصادرة من قلبها في مقرٍّ فوق الزمان والمكان... آه! ما أجمل هذا!!..

وبصعوبة فتحت الرسالة:

- أماه!.. لا أدري هل أستطيع إتمام رسالتي هذه قبل وفاتي أم لا؟.. أريد أن تحتفظي برسالتي هذه سرًّا بينك وبيني... ما أبرد هذا البلد يا أماه... أشعر بالقُشَعْرِيرة وهي تسري في جسدي... أشعر بالبرد يا أمي... أكتب هذه الرسالة على فراش المرض... جاء تلاميذي في المساء لزيارتي... طلبت منهم الدعاء لي بالشفاء... آهٍ يا أمي، لو شاهدت كيف دعوا... لو شاهدت أسلوب وكيفية دعائهم... لو كانت لي ألف روح وتجمّدت كل منها واحدة إثر أخرى لَما ترددت في المجيء إلى هذا البلد البارد. لو كنت هنا إلى جانبي لهيأتِ لي شراب النعناع واللّيمون لأعرق وأشفى. لم أعُد الآن أحزن لعدم كونك معي وبجانبي، لأنني غفوت لحظة فإذا

ببابي يُفتح ويدخل شخص نوراني... ما إن رأيته حتى حاولت أن أهبّ من مكاني.. ولكني لم أستطع.. فقد كنت خائر القُوى.. قال لي:

- هل أصبت بالبرد يا جميل؟ هل بردت كثيرا يا جميل؟..

تصوري! قال لي "يا جميل؟!" ثم نزع بردته وألبسني إياها... والأَهم أنه قال:

- تعال!.. لن تشعر بالبرد من الآن فصاعداً... وإلى الأبد..

وفي أثناء محاولتي القيام من الفراش وقعت على الأرض... سأُلبّي دعوته يا أماه!.. وقد أمرّ بك قبل الذهاب... لا تحزني يا أماه من أجلي... ولن أحزن من أجلك... عندما ودّعتِني قلتِ لي:

- أستودعك الله...

وأنا الآن أستودعك الله وأدعكِ في كنفه وفي كنف رسوله وحبيبه... أُتلِي سورة الفاتحة من أجلي... ودُمتِ في رعاية الله وحفظه يا أماه!.

ابنك جميل...

...

وقعت الرسالة من العمة حسيبة، وتحركت شفتاها دون إرادة منها بسورة الفاتحة. وكأنها تتلو له قصيدة حب. وفيما هي تمسح وجهها بيدَيها وقع نظرها على الساعة التي أعطَتها لجميل... ساعة العائلة وميراثها... كانت متوقّفة وتشير إلى الساعة الثالثة إلا عشر دقائق.

(*) كاتب وأديب تركي. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي. وهي قصة حقيقية وقعت في بلاد الجليد، سيبيريا.

(١) وهو الحرف الأول من كلمة "التهجد".(المترجم)

الشهيدة

رمضان جاقير *

لم تشرق الشمس بعدُ في أفق موسكو.. رفع رأسه عن فراشه وفي صدره ضيق لا يعرف مصدره. حاول أن يستجمع ذهنه ولكن.. نهض ببطء واتجه إلى حيث المغسلة يريد الوضوء.. ولما قُضيت الصلاة انصرف زملاؤه إلى غرفهم إلا هو، إذ كان دوره في الطبخ وإعداد الطعام. دخل المطبخ.. أمسك سكينا وجعل يقشر بها البطاطة، والضيقُ مازال يلازم نفسه.. وإذا بنواقيس كنيسة "سانت باسيل" تدق من بعيد.. فقد لمعت في رأسه صورة جامع السلطان أحمد.. ذكر الأذان الشجي الذي يعلو في سماء إسطنبول كل صباح.. ذكر صوت المؤذن "صارِيجا حافظ"، الصوت الندي الذي يجعل الإنسان في قمة الخشوع.. مرت في رأسه الصور واحدة تلو الأخرى.. الناس يجيبون الدعوة الربانية ويدخلون المساجد أفواجا أفواجا.. فسرعان ما اختلط الضيق بشوق ملتهب.. تنهدات أخرجها من أعماق صدره.. آه أيها الوطن الحبيب!.. ما أجملك.. وما أجمل تلك اللحظات فيك!.. وفجأة تبادر إلى ذهنه صورة العجوز "أَلِينا" التي ساعدها البارحة.. كم كانت سعيدة عندما فارقها، إذ كانت بادئ اللقاء حزينة مغمومة.. وكيف هي الآن يا ترى؟.. قرر أن يزورها ويطمئن عليها.. ترك تأملاته وأعد مائدة الفطور ثم أيقظ زملاءه.. وبعد أن ذهب الكل إلى

جامعاتهم.. التفت إلى صديقه أحمد وقال برفق:

- ما رأيك أن تزور معي عجوزا روسية تعرّفت إليها البارحة؟..

...

المدينة تزدحم بالضوضاء والحركة.. أبواق السيارات والحافلات وأجراس الترام.. لا يكاد أحد يلتفت إلى الآخر، كل في عالمه الخاص به.. وامرأة عجوز بين هذه الحركة والضوضاء، تتوكأ على عصا بيد وتحمل أكياس خضروات وفاكهة بيدها الأخرى.. تمشي بصعوبة وتترنح موشكة على السقوط، تلتفت بين الحين والآخر يمنة ويسرة باحثة عن من يساعدها.. فألفت شابا جميل الهيئة يبدو على سيماه الإشراق والطيب، يجري صوبها.. ولما اقترب منها قالت:

- هلا ساعدتني يا بني..

ابتسم ابتسامة لطيفة حنونة وحمل عنها الأكياس على الفور.. أخذ يسير معها الهوينا على الرصيف.. وعندما وصلا إلى حديقة صغيرة طلبت منه أن يسمح لها بالاستراحة.. ألقت بجسدها المكدود على مقعد من مقاعد الحديقة.. لمح سيماء الألم يرتسم على وجهها النحيل الشاحب، وعيناها المبللتان تعبران عن الحزن الدفين في صدرها.. بعد لحظات..

- ما اسمك يا بني، ومن أي بلد أنت؟

- اسمي مصطفى، من تركيا..

- من تركيا!.. وما الذي جاء بك إلى هنا؟!

- جئت لأكمل دراستي في إحدى جامعاتها..

- ألم تجد في غير هذه البلاد بغيتك؟

- القدر يا عمة، القدر..

وإذا به يبتدرها بالكلام:

- وأنت يا عمة؟..

كأن هذا السؤال أهاج مكنونات صدرها.. فقالت والأسى يقطر من نبراتها الحزينة:

- أنا يا ولدي.. اسمي "ألينا" أقاوم الحياة بكل قساوتها ومتاعبها كما ترى.

صمتت هنيهة ثم بدأت تقص له حكايتها المأساوية المرة.. كان ابنها الكبير وزوجته يظلمانها ويهددانها دائما بالطرد إن لم تقم بتنظيف المنزل وغسل الملابس وجلي الأواني وتذهب إلى البازار لشراء الفاكهة والخضروات وما سواهما.. مس الحزن شغاف قلبه وشعر بألم شديد يعتصر فؤاده:

- هوني عليك يا عمة..

قالها مصطفى ولم يجد كلمة يردف بها.. أطرق رأسه، وأخذ يجول ببصره الأرض.. فرأى قطعة خبز ملقاة على الأرض، فمد يده ورفعها ثم قبلها ووضعها جانبا.. كانت العجوز صامتة تراقب حركاته باستغراب ولم تستطع تفسير ما ترى!.. التفتت إليه وقالت وقد نسيت آلامها وهمومها:

- أيها الشاب.. واضح أنك إنسان طيب.. ولكن قل لي، ما الذي دفعك إلى رفع قطعة الخبز عن الأرض وتقبيلها ثم وضعها في مكان مناسب!؟.. ثم ما الذي دفعك إلى مساعدة امرأة لم تكن تعرفها ولم تكن التقيت بها من قبل؟!.. وأبناؤنا يرمون ليس الخبز فحسب، بل آباءهم وأمهاتهم في الشوارع بلا رحمة ولا شفقة!؟..

ابتسم مصطفى ابتسامة باهتة:

- المحافظة على النعمة أمر له قدسيته في ثقافتنا يا عمة.. ومساعدة

الآخرين واجب لابد أن يقوم به كل إنسان.. وقد حثنا ديننا الحنيف على ذلك..

- دينكم الحنيف! وما هو دينكم؟

- إنه الإسلام يا عمة؟ الدين الذي يأمرنا بالحب والصفاء والرحمة والتسامح..

...

وراح يقص لها كل ما لديه من معلومات عن الإسلام..كلمات لم تسمع بها من قبل أبداً.. سألته وقد بدا الاهتمام على ملامحها:

- وماذا يقول دينكم عن كباركم وآبائكم وأمهاتكم؟..

- يقول ما قاله لنا معلّمنا ومربّينا..

- معلمكم ومربيكم!؟..

- نعم يا عمة، إنه محمد رسول الله ﷺ خاتم النبيين، الذي بشر به موسى وعيسى والأنبياء أجمعين.. يقول: "لولا شيوخ ركع، وصبية رضع، وبهائم رتع، لصب عليكم البلاء صبا". فأنذرنا وفي الوقت نفسه حضّنا على الطاعةِ والاحترامِ لكبارنا وشيوخنا وعلى الحب والعطف والحنان على صغارنا..

كانت "ألينا" تصغي إليه بدقة متناهية.. وتحاول فهم ما يقوله من كلمات.. استطرد مصطفى:

- ثم ربنا ﷻ يأمرنا في كتابنا المقدس ببر الوالدين؛ أن لا نقول لهما حتى "أف" ولا ننهرهما، وأن نقول لهما قولا كريما، ونخفض لهما جناح الذل من الرحمة، وأن ندعو لهما بـ "رب ارحمهما كما ربياني صغيرا".. تربّينا على هذه الثقافة يا عمة.. ثقافة: "رضى الرب برضى الوالدين، سيما

رضى الأمهات التي جُعلت الجنة تحت أقدامهن"..

الجنة!؟.. كلمة أخرى لم تكن تدري معناها..

- وما هي الجنة؟..

- الجنة هي الرياض والبساتين والحدائق التي أعدها الله ﷻ لعباده المؤمنين.. فيها العنب والزيتون والرمان وكل ما تشتهيه الأنفس من الثمرات.. هي دار الخلود والكرامة، فيها من النعيم المقيم الأبدي ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر..

امتلأت عينا مصطفى بالدموع فجأة إلا أنه استجمع نفسه.. تنهد بهدوء ثم تابع..

- نعم يا عمة، الجنة.. فكما أن بعد كل ظلام نورا، وبعد كل ليل صبحا، وكما أن كل ضيق وحزن يتبعهما رخاء وفرح، فكذلك الحياة الدنيا، فإنها سوف تنتهي وتزول يوما بمتاعبها وهمومها، وتنتهي إلى الراحة والرخاء والخلود..

خفق قلبها خفقات حلوة النغم وشعرت بلذة عارمة.. كأن الأيام التعسة بكل ما فيها من يأس وعذاب تحولت إلى راحة واطمئنان..

- وكيف يمكنني أن أعتنق هذا الدين يا ولدي؟..

- يكفي أن تقولي "أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله"..

راح مصطفى يكررها و"ألينا" تحرك شفتيها بعده، طلبت منه أن يكتبها على ورقة بالأحرف الروسية حتى تحفظها.. ابتلعت ريقها بدأت تحاول قراءتها:

- أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله..

شعرت بنور الإيمان ولذته في قرارة نفسها فجأة، وتهلل وجهها فرحا.. تدحرجت الدموع الباردة على خديها دون إرادتها.. هاهي السعادة التي كانت تبحث عنها ليل نهار.. اعتصمت بالصمت لفترة طويلة.. ثم نهضت وحملت الأكياس بنشاط وهمت بالذهاب..

- لا أعرف كيف أعبر لك عن شكري وامتناني يا ولدي.. فأنا مدينة لك.. أعدتَ إليّ حلاوة الحياة التي افتقدتها زمانا طويلا.. أشعر وكأني ولدت من جديد يا ولدي.. أنتَ قمتَ بالواجب وساعدتني بما فيه الكفاية شكرا جزيلا.. والآن اذهب ولا تتأخر عن جامعتك.. بيتي خلف هذا المبنى، لا بد أن تزورني.. لا تنساني أرجوك.. إلى اللقاء..

...

هاهو ذا يسير وأحمد في صمت على نفس الطريق التي سار عليها البارحة.. ولكنه بشعور غريب مختلط هذه المرة، وما زال الضيق الذي انتابه في الصباح يلازمه خطوة خطوة. أراد أن يشغل أفكاره بشيء يبدد به هذا الضيق فدخل دكان أزهار واشترى باقة ورد ليقدمها إلى عمته "ألينا".. وقف مع صاحبه أمام منزلها وراح يجول بنظراته في جنبات المبنى.. عاودته اللحظات القصيرة التي أمضاها مع العجوز "ألينا".. اللحظات التي كانت أغلى ما في الدنيا وما عليها.. تذكر حديث أسوته ﷺ "لأن يهدي الله بك رجلا خير لك من الدنيا وما فيها"..

...

وضع مصطفى باقة الورد على القبر وراح يقرأ سورة الفاتحة فاتحا يديه إلى السماء، وفي جانبه صاحبه أحمد و"أوليك"حفيد العجوز "ألينا".. وبينما هو يدعو شرع "أوليك" يحكي عن حادث السيارة الذي أدى إلى

وفاة جدته "ألينا" والدموع تنساب من عينيه:

- قيل لي، إنها عندما كانت تقطع الشارع حاملة أكياس الفاكهة والخضروات، ضربتها سيارة هوجاء وقذفت بها إلى الجانب الآخر من الشارع.. فسارع مَن سارع لطلب النجدة، وأُخذت إلى المستشفى.. كنت إلى جانبها طوال الليل، كانت تردد اسمك يا مصطفى دائماً وتكرر كلمات لم أكن قد سمعتها من قبل ولم أدرك معناها.. وقبل شروق الشمس..

تعقدت الكلمات في فم "أولِيك" وأجهش بالبكاء.. تنهد مصطفى ثم قال في صوت خافت لا يكاد يُسمع متذكراً الكلمات التي قالتها "ألينا" عند فراقه: "أشعر وكأني ولدت من جديد يا ولدي"..

- رحمك الله يا عمة "ألينا" وأسكنك جنانه.. حقا إنك وُلدتِ من جديد، فطوبى لك!..

فلم يستطع يتمالك نفسه أكثر وترك دموعه تنفجر بغزارة بللت تربة القبر.. وإذا بـ"أوليك" يمد إليه ورقة ويقول..

-وجدتُ هذه الورقة بيدها، قابضة عليها بشدة..

إنها الورقة التي كتبها لها: "أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله"..

(*) كاتب وأديب تركي. الترجمة عن التركية: نور الدين صواش. وهي قصة حقيقية وقعت في روسيا.

رجال ولا كأي رجال

أ.د. فريد الأنصاري *

لولا أني رأيتُهم لقلت إنه مجرد وهمٍ أو هُراء أو خيال.. ظلال نورية لجيل الصحابة الكرام، جمعوا بين خصلتين عظيمتين من خصالهم الكبيرة: الهجرة والنصرة. فلم يكن منهم مهاجرون وأنصار، بل كانوا مهاجرين أنصارا.

والهجرة إلى الله ﷻ ورسوله ﷺ كلمات تتلفظ بها الأفواه ولكن قلّما تعيها القلوب. فأن يترك الفتى حياة الراحة والدعة وبريق المدينة الجذاب، ثم يضرب في الأرض ليغوص في غربة بعيدة، يحمل في يده قنديلا من نور؛ بحثًا عن المستضعفين في بقاع الأرض، من أجل إطعامهم جرعة من رحيق الحياة، فيتحمّل في سبيل ذلك فناءَ نفسه وذوبان ذاته ونسيان دنياه. فتلك تجربة روحية لا يعرفها حقًّا إلا من عاناها، وإنها لعقبة دونها عقبات، تنتصب في مدارج المجاهدات.

من بلاد الأناضول تشرق شمسهم، ثم تتدفق أشعتها نحو كل العالم خيوطا بلورية وهّاجة، تصل الأرحام القديمة وتذكي الحنين الجريح.. مهاجرون تركوا خلفهم كل شيء وانطلقوا كالخيول العارية، يفتحون الأبواب والنوافذ للمحاصَرين في كل بقاع الأرض، ويعلّمونهم كيف يستنشقون من جديد هواء الفضاء الفسيح، بعدما فقدوا إحساسهم بالحياة منذ قرون.

مهاجرون، هجروا هذا الذي تذل له القلوب الميتة: متاع الحياة الدنيا وزينتها، رغم تدفقه عليهم من كل الجهات، وانطلقوا سائرين إلى الله، يوزّعون كلمات النور ويبشرون العالم بالأمن والسلام ويبعثون في قلوب الفقراء الأمل العظيم. كانت جحافلهم تتفرق بين الصحارى والجبال والأدغال والمحيطات... وقد تَكْبُو فرَسٌ هنا أو هناك، ولكن الطليعة أبدا تصِل إلى غايتها، وترفع راية النور فوق أعالي القمم الشامخة، فيشمخ الدين بهم ويعتزّ..

ظلال من جيل الصحابة أو نُسخ أخرى لستُ أدري.. ولقد رأيتهم وما كذبت عيني. فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وما بدّلوا تبديلا.. فلله درّهم.. أيّ رجال هم!؟

أنصار.. فلقد نَصروا الخير فكانوا أنصار العصر الجديد.. كلما رأوْا شمعةَ نور تضطرب في عاصفة الريح في أي بقعة من العالم، أسرعوا إليها غير مبالين بالصعاب واحتضنوها بمشكاة من زجاج بلوريّ، فتصير كأنها كوكب درّي، ينبُض بالجمال والبهاء..

جاعوا ليأكل غيرهم، وعَرُوا ليلبس فقراؤهم، وعَدِمُوا ليملك مستضعفوهم، وبكوا ليضحك إخوانهم... فكانوا حقّا يوثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

أنصار.. اقتبسوا نصرتَهم استمدادا من نور المدينة المنورة، بُعَيد هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام إليها مباشرة، ولمّا يزل فرحُ أهل يثرب جديدا يتفجّر طربا.. من هناك أخذوا حقيقة نصرتهم، نديّة طريّة كغُصنٍ رطيب، يَنثر النّدى والثمارَ اللذيذة.

هاجروا ونصروا، فأعطوا من ذاتهم لسِفار الهجرة، وأعطوا من ذاتهم

لدافة النصرة، فما بقي لهم في هذه الأرض من شيء! ولكنهم في عالم الروح يملكون كل شيء، استنادا إلى لله الغنيّ الحميد.

مجانين.. يعشقون الخدمة اغترابا، من قَرّ "سبريا" إلى حَرّ جنوب إفريقيا.. ولا تركوا جزيرة أو مغارة أو سهلا أو جبلا من كل قارّات العالم إلا دخلوه، ووزّعوا فيه شُعاعات الصبح القريب.. يبتسمون للَسع الآلام، ويسعدون بعبور حقول الشوك الجارح فتسيل الدماء من أقدامهم، وتسيل الدموع من عيونهم، والقلب مسرور بالله!..

رجال.. لو تحدث عنهم كتاب قديم، لقلنا إنها مبالغة من مبالغات كتب القصص والطبقات والمناقب.. لكنهم يعيشون "الآن" في الحاضر والمستقبل، فهاهم أولاء أمامك نماذج حية من الشوق الملتهِب والفاعلية العظيمة.. فأكرِمْ بهم وأنعِمْ من شباب وكهول.. أحيَوْا فينا أمل الحياة، ومدّونا بيقين الشروق الجديد.. فكانوا مِصداقا لكلمات النبوة، في أنّ الله سينصر هذا الدين نصرا عالَميًّا، حتى لا يبقى بيتُ وَبَرٍ ولا مدَر إلا دخله بعز عزيز أو ذل ذليل..

ولقد رأيتُ أنوار الأسماء الحسنى تنعكس على عيونهم، وتتدفق من بين أيديهم.. فيتبعون هُداها منجذبين بقوتها إلى تحقيق قدر الله العظيم، في إحياء الأرض بعد موتها بالغنى والكرم والجود. ترى الواحد منهم أمّة في رجل أو رجلا في أمة.. قد تنبهر إذ تقع عيناك على أي طيف منهم فتقول: "وَيْ كأن ليس له مثيل"، فإذا رأيتَ الآخر أنساك جمالُه بهاءَ الأول. جمعوا أخلاق الخير والفضيلة كلها. نظرة واحدة فيهم تغنيك عن قراءة كتب الفلسفة والأخلاق وخيالات المدينة الفاضلة. فهؤلاء لا يتكلمون عن الأخلاق، بل هم الأخلاق نفسها تمشي على الأرض، في زمن صار

الخلق الكريم فيه قطعة مهملة في متحف التاريخ.

هل تريد أن تكون منهم؟.. فكّرْ، فكّر! قبل أن تقول "نعم".. فإنما هي كلمة تقولها، وإنها لدعوى عريضة، دونها اقتحام العقبة.. وما أدراك ما العقبة؟! أن تبيع نفسك لله كاملة، فلا يبقى منك لك شيء، أيّ شيء.. تستسلم لمراد الله حيث ما سارت بك مقاديره، حتى تُدفن بذرتك في أيّ نقطة من العالم، بعيدا بعيدا عن وطن الأُنس والأهل والأحباب.. زادك الوحيد، وغذاؤك الفريد "ذكر الله" و"الاستمداد من نوره العظيم".

أن تكون منهم معناه أن ينساك الناس كلهم، ويذكرك الله وحده، وأن تخرج من الدنيا وأنت ما تزال حيًّا تعيش فيها، تأكل الطعام وتمشي في الأسواق، فلا ترى في نفسك ولا لنفسك شيئًا.. وترى أقرانك من معارفك القريبين، ممن تضخّمت عندهم ذواتهم، ولم يستطيعوا أن يتخلصوا من أغلال التراب، ولا أن يُفْلِتوا من شباك الأسباب، يرتقون في درجات الوهم الدنيوي، فيُطلّون عليك من أبراجهم العالية، بما يملكون من مناصب وألقاب! وأنت تمشي على التراب حافي القدمين، فقيرا من كل شيء، إلا من مدد الله العظيم.. ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾(الفرقان:٢٠).

أتريد أن تكون منهم؟.. "نعم"، تلك كلمة سهلة النطق، لكنها تجربة مريرة.. ومَن قال: "إن النار ليست لها خاصية الإحراق"، فليَمُدَّ إليها يدَه.. فهل أنت مستعد لأن تحترق حتى يصير جسمك رمادا؟ فتذروه الرياح في كل قارات العالم، ذرّاتٍ متناثرة هنا وهناك، ما سقطت منها واحدة على تربة قاحلة إلا جعلَتها تخضرّ، وتُنْبِت من كل زوج بهيج..

هؤلاء هم عماليق العصر، ونماذج الإنسان الحق الذي ينتظره العالم منذ زمان بعيد.. فهل آن الأوان لتستعيد الأرضُ أمانها الذي أودعه فيها

سيد الخلق محمد عليه الصلاة والسلام؟!.

حاصَروا ظُلْمَ البنادق المتارس بالمعاهد والمدارس، وأطفؤوا نيران الفتن والحروب بالكلمات والحروف.. فكل مدرسةٍ يَبنونها هنا أو هناك تغدوا شجرةً خضراء، ما تزال تفرّخ حولها فسائل منها تَنمو ثم تنمو، حتى تصير البلاد أشجارا وأشجارا، فإذا بغابة الخير تَخنُق صوتَ الرصاص البغيض، وتقضي على رائحة البارود النتة..

معلّمون.. انتشروا في كل مكان، يعلّمون أطفال العالم منطق الطير وتراتيل العصافير، ويرسمون على السبّورات الخضراء أمامهم أحلامَ الغد الجميل ومعالم الطريق إلى الجنة. فللطفولة المتخرّجة من بين أحضانهم -عَبر كل قارّات الأرض- نشيد واحد، يبشر الأمة بالخير والسلام..

ملائكةُ الذكر تحبُّهم، فلطالما استمعت إلى أهازيجهم الشجيّة.. وملائكة العلم تعرفهم، فلطالما حملت بأجنحتها طلائعهم، وهي تضرب في الأرض نحو غابات أسطرالْيا أو صحارى آسيا أو أدغال إفريقيا أو نحو ضباب الغرب البعيد.. ليطلقوا شعاع النور من فوق ناطحات السحاب.. معلّمون عُزَّل، إلا من سلاح التربية والتعليم! يغامرون باقتحام المخاطر في كل مكان، فيرحلون بصدورٍ عارية، ووجوه تبتسم أمام فُوّهات الموت! ولربّما خرقت بعضَها رصاصةُ غدرٍ أو نائبةُ دهرٍ، فلا يرجعون القهقرى أبدا!..

سادتي!.. أنتم المجاهدون حقّا، فعليكم من الله السلام.

(*) جامعة مولاي إسماعيل، ورئيس المجلس العلمي بـ"مكناس" سابقا / المغرب.

تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنته...

لا تذهب يا أبت..

كامل عون *

الشاحنات تخترق أمواج الرمال في الصحراء المحرقة مخلّفة وراءها غيوما غبارية صفراء... أرض المخيم في وسط هذه الصحراء ممتلئة بأجساد أناس كالأشباح حاصرهم الفقر والجوع والمرض من كل جانب، وقذفت بهم رياح اليأس إلى دهاليز مجهولة المستقبل... وإذا بشاحنة تقف بفرملة مزعجة على أرض المخيم، وتندفع منها امرأة شابة بيضاء البشرة وبين يديها طفل أسمر مغشي عليه، تلتفت يمنة ويسرة بذعر، وتطلق صيحات وتوسلات تتعالى وتطغى على أي صوت آخر: "النجدة!.. ساعدونا أرجوكم ساعدونا!.."

فلا أحد يبالي بها ولا أحد يبادر لمساعدتها، كأن الناس هنا اعتادوا على مثل هذه الحالات وعلى مثل هذه الصيحات... وعلى الأثر أُخرجت من الشاحنة أم الطفل في حالة أسوأ من ابنها بكثير يحملها رجلان إلى مستشفى الصحراء... مشهد مرعب.. المستشفى تعج بالمرضى وليس هناك سرير شاغر للمرأة وابنها، فألقيا على الأرض في إحدى الزوايا تحت حر الشمس الحارق لفترة من الزمن.. وبعد وقت قصير حضر الطبيب الوحيد في هذه الصحراء وراح يفحص الأم وابنها الممدودَين على الرمال اللاهبة... هز رأسه وقال دون اكتراث: "لا فائدة.. إنهما يموتان.." ثم همّ

بالعودة إلى حيث أتى.. كان لهذه الكلمات القليلة وقع الصاعقة على المرأة البيضاء.. فجمدت في مكانها وشحب وجهها وارتعشت أناملها وقالت بصوت واهن مرتجف: "أتوسل إليك ساعدهما.." فردّ دون أن يلتفت إليها: "إنهما يموتان.. ليس بوسعنا أن نفعل شيئا، إنها مضيعة للوقت"... ساد السكون لحاظات.. ثم انفجرت بصرخة غاضبة في وجه الطبيب الذي راح يبتعد عنها شيئا فشيئا: "لستَ أنت الذي تقرر موتهم!.." وأجهشت بالبكاء... كلمات سمّرت قدميه في الأرض فتوقف برهة ثم أشار بيده إلى مساعده بأن ينقل المرأة وابنها إلى الخيمة. وبعد بضع ساعات أُخذت الأم إلى خيمة العمليات الجراحية...

صرخات استرحام تصمّ الآذان.. ما كادت تطمئن المرأة البيضاء في مكانها حتى دخلت إلى الخيمة في لهفة وقلق... يا لهول المشهد... المرأة الأم ممددة على طاولة من خشب والذباب ملتفّ عليها.. بطنها مشقوق، وقد تدلت حبال أمعاؤها يمينا وشمالا، وجسدها كله يهتز ورجلان يمسكانها بكل ما لديهم من قوة حتى لا تتحرك من شدة الألم... لم تعد المرأة البيضاء تسمع إلا أنفاسها اللاهثة، ولم تشعر إلا بصدرها الذي يعلو ويهبط رعبا.. قالت وعيناها تدوران في قلق ودهشة: "يا إلهي! ماذا فعلتم بالمرأة؟! إنكم تقتلونها؟!"

انتفض الطبيب حدّة واحتقن وجهه بالغضب.. ألقى نظرة إلى المرأة التي شُقّ بطنها دون مخدّر ثم ركز نظراته في وجه المرأة البيضاء وهتف: "أين ظننت نفسك يا امرأة! في مستشفى خمس نجوم!؟ نفد كل شيء، لا أدوية ولا مخدر.. الناس يموتون هنا من الجوع!".

...

مشاهد مثيرة على شاشة التلفاز. أجل، كان إبراهيم يشاهد هذه اللقطات المثيرة من فيلم يعرض على التلفاز... إنه سمع عن إفريقيا الشيء الكثير ورأى عنها شتى الصور من الكتب المجلات والجرائد.. غير أن هذه المشاهد التي رآها قبل قليل حزّت في نفسه ورسمت على جبهته سطور ألم ناطق... نكس رأسه وغاب في تفكير عميق.. وإذا بصوت زوجته: "هيا، الطعام جاهز".. ظل إبراهيم واجما في مكانه مكروبا مهموما شاعرا بالذنب.. كيف يحلو له طعام أو يستسيغ له شراب بعد أن رأى ما رأى؟! أراد أن يروّح عن نفسه فتوجه مستأذنا زوجته إلى الشرفة.. جلس على كرسيه الهزاز.. تنهدات أخرجها من الأعماق ثم قال في نفسه؛ "يا إلهي ما هذا الذي يجري في هذه الدنيا!.. أيعقل أن يعيش الناس هنا حياة رخاء ونعمة، ويعيش أولئك المساكين هناك تحت قيود الفقر والجهل والمرض والجوع.. لا.. سأذهب إلى تلك البلاد..". لحظات كأنها تحدد مصير حياته.. كان يحب مساعدة الفقراء أينما كانوا، ويمد يد العون إلى كل محتاج بلا تردد، حتى إنه كان يرسل كل عيد أضحى عشرات الأضاحي إلى مختلف أرجاء العالم، ويساهم بجمع الأخرى مع المنظمات الخيرية التي نذرت نفسها إلى خدمة الإنسانية.. ولكن هذه المرة قرر أن يذهب بنفسه..

قام من مكانه وتوجه نحو الغرفة حيث المكتبة.. تناول كتابا بعنوان "ونحن نقيم صرح الروح".. فتح الكتاب وبدأ يقرأ: "الشعور بالمسئولية هي أول وسيلة لتحقيق رؤانا وأحلامنا.. ينبغي ربط جهودنا بالمسئولية.. طريقنا طريق الحق، وقضيتنا حمل الحق، وغايتنا تحري رضا الله في كل رفّة عين.. ينبغي أن نشعر بالمسؤولية لأنها صدَقةُ كينونةِ الإنسان وحكمة وجود الإرادة..". وكأن هذه الكلمات تؤيد قرارَه وتشد عزمه وتدفعه إلى تحقيقه...

...

مكبرات الصوت تذكّر الركاب المسافرين بالتوجه إلى بوابة "كونغو". ألقى بنظراته الأخيرة على زوجته وأولاده الذين لم يكن يتصور الحياة بدونهم.. ثم ضمهم إلى صدره واحدا واحدا وقبلهم مرات ومرات.. الكل يبكي.. التفت إلى زوجته التي كانت تمسح دموعها وقال في رقة: "أستودعكم الله، اعتنوا بصحتكم جيدا.. وادعوا لي بالتوفيق".. "أبت لا تذهب.. لا تتركنا أرجوك!"..

ما إن سمع هذه الكلمات حتى لمعت في رأسه صورة أمّنا هاجر وولدها إسماعيل عليهما السلام عندما تركهما إبراهيم عليه السلام في صحراء مكة القاحلة وجبالها.. في صحراء لا زرع فيها ولا ماء، ولا أنيس ولا جليس.. دوّى في رأسه صراخ الطفل إسماعيل عليه السلام الذي كان يتردد صداه في أجواء هذه القفراء، ونداء الأم الذي كان يشق عنان السماء: "يا إبراهيم! أين تذهب وتتركنا في هذا الوادي؟.." وإبراهيم يغيب عن الأنظار رويدا رويدا دون أن يلتفت إلى الوراء.. فتنادي الأم مرة أخرى: "آلله أمرك بهذا؟!". فيهتف:"نعم." عندها ترتاح أمّنا هاجر وتقول في غير تردد وقلق: "إذن فلن يضيعنا".. يا لها من ثقة بالله عظيمة.. ثم تساءل: "هل كانت الكعبة المباركة تقام ويأتي الناس إليها من كل فج عميق لولا ترك إبراهيم الخليل عليه السلام أمّنا هاجر في هذه الصحراء؟.. هل يسعى الناس بين الصفا والمروة، وهل يشربون من ماء الزمزم؟!. أجل، كل هذه الأشياء لهي لحكمة إلهية"..

ثم التفت إلى ابنته الصغيرة التي كانت تنادي من صميم قلبها.. نظر إلى عينيها المبللتين بالدموع ثم اقترب منها واحتضنها وراح يقبّلها بحرقة

قلب ويكلّمها بلطف: "أبوكِ لن يغيب طويلا إن شاء الله، بضعة أشهر ستمر سريعا بإذنه يا حبيبتي..". شعر أن الأرض تميد به وأنه لم يعد يقدر على مقاومة مشاعره الجياشة.. مسح دمعة أفلتت من بين أهدابه ونظر إلى زوجته نظرة المستغيث وكأن لسان حاله يقول: "أرجوكِ ساعديني.." فتناولت منه طفلته الصغيرة ولو بصعوبة.. حمل حقيبته وأخذ يمضي نحو البوابة بسرعة دون الالتفات إلى الوراء خشية أن يعدل عن رحلته ويرجع، وصغيرته تنادي "أبت.. أبت.. لا تذهب..".

ألقى برأسه على حاجز المقعد في الطائرة وشرد بنظراته إلى بعيد.. رنّت في أذنه كلمات أستاذه التي قالها يوما: "كالشمعة.. عليكَ أن تشعل وتذوب لتنير الدروب للآخرين..". وهل سيستطيع أن يكون شمعة تذوب من أجل إحياء الآخرين؟ توجه إلى مولاه ﷻ ضارعا: وما توفيقي إلا بك، ولا اعتمادي إلا عليك.. يا رب يا الله! عليكَ توكلتُ وإليك أنبتُ، فيسّر لي أمري، وثبت أقدامي..".

...

الوجوه متشابهة في ملامحها وسمرتها في "كونغو".. النظرات مصوبة إليه وكأنها سهام ترشقه.. كان أبناء هذه المدينة يتوجسون خوفا من الرجل الأبيض، لأنه أذاقوهم هوانا ما بعده هوان وسامهم ظلما ما بعده ظلم... فالرجل الأبيض في نظرهم شيطان أمرد، ولابد أن هذا الرجل الأبيض الغريب واحد من إخوانه. حاولوا في المطار أن يُرجعوه من حيث أتى، حتى إن بعض المتعصبين منهم كان يكور قبضته ويزم شفتيه ويشير بإصبعه إلى عنقه ويقول: "الموت للبيض".

مضت الأيام بسرعة.. هاهو عيد الأضحى على الأبواب.. شرع بتنظيم

قائمة أسماء أصحاب الأضاحي وفي مقدمتهم اسم الرسول ﷺ حسبما طلب منه أصحابه الأتراك الذين آزروه ماديا ومعنويا في مهمته هذه.. اشترى ٣٦ كبشا وراح ينتظر يوم العيد بفارغ الصبر..

...

استلقى إبراهيم على فراشه ليأخذ قسطا من الراحة.. تناهى إلى سمعه التكبيرات والتهليلات من مكبرات المآذن المتناثرة القليلة في المنطقة.. إنه صباح العيد.. الساحة تغص بالناس ذوي الوجوه السمراء والأبدان النحيفة. وإذا برجل يشع وجهه نورا يتقدم نحوه بخطوات رزينة... إنه أشرف خلق الله عليه الصلاة والسلام وبيده قائمة.. فهبّ إبراهيم مسرعا لاستقباله بفرح جم وسعادة غامرة ووقف إلى جانبه باحترام واستحياء... أخذ الرسول ﷺ يقرأ الأسماء واحدا تلو الآخر: أويس، صادق، أحمد، عبد الرحمن... حتى أكمل العدد ٣٦...

أفاق إبراهيم من نومه وجبينه ينضج بالعرق، فوجد الدموع تتخذ لها مسارا فوق خديه.. كان يبكي.. همست شفتاه بصوت خافت وقلبه يرفرف بين أضلاعه من الفرح: "إنه هو!..". أحس كأن يد الرسول ﷺ تمسح رأسه... قال في شوق: "يا رسول الله، يجهلك الناس في هذه البلاد النائية ولا يعرفك حق المعرفة!"..

...

لم يصدق أهل هذه المنطقة ما رأوه بأعينهم!.. كيف لرجل أبيض يحسن إلى أسود ويذبح الذبائح من أجله، هذا شيء عجاب!.. كل شيء من حوله يوحي بالسعادة والرضى، وكأن هؤلاء المساكين لم يعانوا أو يشقوا طوال حياتهم!.. وكان إبراهيم يتشرب هذه الفرحة في استمتاع ونشوة غامرة.. كلٌ يتناول كيس لحم يمضي به نحو بيته بوجه طلق

مشرق... فلمح إبراهيم غلاما صغيرا منفردا، يقف بعيدا عن الناس وكأنه يتحرّج من الاقتراب.. دنا منه وراح يمسح على رأسه بحنان ثم حمله إلى حضنه، لاطف شعره المجعد وقبّله... تذكّر أولاده فغمغم في نفسه: "ما الفرق بين الأبيض والأسود، أليسوا كلهم أولادنا وفلذات أكبادنا.. أليسوا كلهم أملنا ومستقبلنا". ثم أعطاه كيسا من اللحم.. فهرول الغلام الصغير إلى أمه بفرحة عارمة وراح يحدثها.. فظن إبراهيم أنه سعدَ بكيس اللحم.. ولكنه علم فيما بعد أن الغلام يقول لأمه: "مسح الرجل الأبيض رأسي وأحبّني يا أماه"... جاشت عواطفه وأطلق صراخات صامتة من أحشاء قلبه: "الحمد لله ملء السماوات والأرض أن كرّمني بخدمة هولاء المساكين..". وبعد إنهاء مهمته هنا ولىّ وجهه شطر منطقة أخرى..

...

وصل هو ورفاقه إلى قبيلة تبعد عن المدينة بأربع ساعات بعد رحلة شاقة عبر النهر على قارب صغير. تعجّب رئيس القبيلة وأهلها من قدوم رجل أبيض إلى قبيلتهم، إذ لم يأتهم زائر أبيض من قبل أبدا.. فأراد رئيس القبيلة أن يلتقي بالضيف.. وما إن علم غايتَه حتى رحب به واستقبله بحفاوة بالغة.. فعمّ الفرح في جميع أطراف القبيلة... إذن، جاء إليهم رجل أبيض ليساعدهم لا ليستعبدهم.. رجل أبيض يرى الناس جميعهم سواسية كأسنان المشط لا فضل فيهم لأبيض أو أسود.. يا لها من أخلاق فاضلة!.. لعله هو الإنسان الذي يجب أن يقتدوا به ويسيروا على نهجه... فحاولوا أن ينهلوا كل ما عنده من الأخلاق والعلم والفضيلة في ساعات معدودات..

وعندما آن أوان الفراق قال رئيس القبيلة لإبراهيم وعواطفه تجيش بالحزن والأسى تارة، وبالفرح والسرور والرحمة تارة أخرى: "سر على

بركة الله، فقد بعثت الروح في أجسادنا الميتة، وأيْقَظتنا على النور الخالد والرسالة السمحاء فأحييتَ بها قلوبنا.. علّمتنا معنى الحياة وعلمتنا الحب والإخلاص والعطاء..."

(*) كاتب وأديب / اليمن.

المسوّف

رمضان كَرْبَتَنْ*

أكثر من مرة تثاءب، تمطَّى، فرقع أصابع يديه، فرك عينيه.. وهمّ بالنهوض وتركِ الفراش.. غير أن شيئاً ما كان يمسك بتلابيبه ويمنعه من الحراك.. أُوه.. هذه أمي.. أسمع وقع خطواتها على السلّم.. وكالعادة ستنهال عليّ توبيخاً وتوقر سمعي بمواعظها.. ما أطيبَ الفراش وما أطيب الدفء الذي يشيعه في نفسي وجسمي.. ها هي تقف قبالة سريري:

- انهض يا بنيّ.. ما هذا الكسل؟ نحن الآن في الظهيرة.. أنسيتَ أم أرى أنك تتناسى.. الامتحانات على الأبواب.. قم وذاكر دروسك يكفيك كسلاً...

- حسناً يا أمي استمعتُ إليكِ.. اتركيني الآن، دعيني أكمل نومي، وسأنهض بعد ذلك وأذاكر كما تريدين!..

عادة "التسويف" هذه صارت طابع حياته، لم يستطع نبذها وراء ظهره حتى وهو طالب جامعي، حيث كانت سبباً في تأخره عن زملائه في كل شيء. وفي أحد الأيام رجاه أحد زملائه أن يصحبه إلى الجامع لأداء فريضة الجمعة، فوجئ بهذا الرجاء. وعلى الرغم من أنه يدرك أن "الموت" إذا جاء فلا يمكن أن يقول له: انتظر قليلاً، أو من فضلك تعالَ غداً حتى أستعدّ لاستقبالك.. فقد ردّ على زميله:

- اذهب أنت اليوم، ولكني أعدك أني سأباشر الصلاة في وقت لاحق

وربما أصطحبتك وقتذاك إلى الجامع...

وغادر كليته بعد فشله سنتين متتاليتين، وهام على وجهه لا يدري ماذا يفعل، ولكن واحداً من زملائه اصطحبه إلى صديق له من رجال الأعمال ورجاه أن يلحقه بعمل ما ليعتاش منه.

مضت الأيام والسنون فإذا به يتزوج ويرزق بأطفال يقوم بتربيتهم ورعايتهم. وحين نصحه صديقه أن يزيد من اهتمامه بأطفاله ويوجههم الوجهة الحميدة تعلّل -كما هو شأنه دائماً- بأن أطفاله لا زالوا صغاراً وأنه سيفعل ذلك عندما يكبرون قليلاً. وعندما كبر هؤلاء الأطفال وباتت تؤرقهم أسئلة كثيرة لا يعرفون جواباً عنها، ويسألون ويلحون بالسؤال على والدهم، اكتشف الوالد نفسه، وعرف أنه لم يكن على دراية ليجيب أولاده عما يختلج في أذهانهم من إشكالات في الدين والحياة، وأنه خالي الوفاض لا يكاد يعرف شيئاً مما ينبغي أن يعرفه كلُّ أب للأخذ بأيدي أبنائه إلى الطريق المستقيم. لم يجد بداً من التردد على المكتبات والاستعانة ببعض الكتب التي يمكن أن تزوده بما هو يفتقر إليه من علم وثقافة. اختار بعضاً من هذه الكتب وأراد أن يدفع أثمانها، توقف قليلاً وتردد وقال في نفسه: "إن ما معي من النقود لا تغطي ثمن هذه الكتب، إذن سأشتريها عندما تتوفر لي النقود اللازمة"، ثم ترك الكتب ومضى لشأنه. وعندما توفرت له النقود لم يخطر بباله العودة إلى المكتبة واقتناء الكتب التي اختارها في المرة الأولى.

وبعد فترة طويلة، وبينما كان ذاهبا لعمله، شاهد متسولا معاقا، وفكر في إعطائه بعض النقود إلا أنه قال في نفسه: "أستطيع أن أعطيها له عند العودة".

وبينما كان يقترب من عمله سمع صوت المؤذن، وكان أحد أقربائه قد توفي.. اغتم من داخله وفكر قائلا: "إن الموت سوف يصيبني ذات يوم، والعمر يمر بسرعة.." ثم سأل نفسه: "ألم يحن الوقتُ بعدُ لدفع متطلبات روحي المعذبة؟".. كان رده بلا تردد: "نعم، ولكن المشاغل في هذه الفترة كثيرة للغاية، ليأت فصل الصيف ونتخفَّف من مشاغلنا عندها نفكر، كما أن أيام الله لا تنتهي"!

وبينما كان يمر في طريقه بين الأكواخ أثناء العودة من العمل شعر في داخله بمرارة، وتذكر سنوات المشقة، "يا إلهي! ما سبب تلك الدموع؟".. لم يتحمل ثقل المشاعر أكثر من ذلك، ففاضت عيناه بالدموع، وعندما نفدت طاقة تحمله جثا على ركبتيه واستمر في البكاء.

وتصدعت روحه بأحاسيس لا يمكن وصفها.. مسح عينيه وتمتم قائلا: "لعلي أستطيع تدوين هذه المشاعر والأحاسيس على الورق لأنها تشكل صفحة مهمة من تاريخ حياتي" ولكنه أردف يقول: "ذات يوم سأفعل ذلك".

كان يوما يساوي ألف شهر، ولكن عليه أن يعلم أنه لكي يتمكن من الوصول لذلك اليوم، يجب أن يعرف قدر كل يوم، وأن يبذل جهده في كل خطوة.

وذات يوم خرق صوت المؤذن سكون الحي، فأقبل الأصدقاء من كل مكان حتى امتلأ صحن المسجد بهم لحضور صلاة الجنازة. كان معروفاً لدى أهل الحي.. ذاك الرجل الذي فقد حياته أثناء ذهابه لعمله نتيجة ارتطامه بسيارة كان يقودها سائق مستهتر.. اصطفوا للصلاة عليه، وأثناء الصلاة فكر صديق له كان يحبه وينصحه دائما بأن لا يؤجل عمله لغد.. ذكر الرجل الذي لم يعط لأيامه أهمية وأمضاها بقوله دائما: "يوما ما".

وعندما بدأت الجماعة في التفرق اقترب صديقه من التابوت، ووضع يده عليه بالرغم من نظرات الإمام وهمس قائلا: "أواه يا صديقي ألم تكن تعلم أن الموت يطاردنا وأنْ لا مناص منه، وها أنت اليوم تلقاه كما سنلقاه نحن من بعدك"..

(*) كاتب وأديب تركي. الترجمة عن التركية بتصرف: د. سمير زهران، أديب إبراهيم الدباغ.

ياسين أنت

علي تُوكُولْ *

على الحائط قبالته تماماً خارطة كبيرة... أدام النظر فيها وكأنه يريد أن يحدثها أو أن يستمع إلى حديثها.. الخارطة تتكلم.. تتحدث.. تقص قصصاً.. وتقول أشياء كثيرة لمن يريد أن يصغي وأن يتعلم.. إنه يصغي الآن ويتأمّل.. يتنقل بين أرجائها... يطّوفُ بين بلدانها وأقطارها... وفجأة توقف نظره عند عوالم "آسيا الوسطى"... هذه العوالم السحرية التي يكتنفها الغموض... والتي تعجّ بشعوب وأقوام وتاريخ موار بالأحداث.. إنها تكاد تشكل قارة بذاتها... بأراضيها الشاسعة... وبمناخاتها وأجوائها المتقلبة... وبهذا الكمّ الهائل من الأقوام والقبائل التي كانت تقذف بهم في كل مرة إلى شتى أقطار المعمورة... توقف لحظات.. ثم سارع يستذكر معلوماته المدرسية عن هذه "الآسيوية الوسطية" كما يسمونها... ازدحمت في وجدانه الذكريات... ورجع بخياله إلى تلك السهوب التي تمتد إلى حيث يمتد بصر الخيال... وتمنى لو يفتح عينيه ذات صباح ليجد نفسه في بلد من بلدانها.

وغدا الحلم حقيقة... والخيال واقعاً... فقد وقع عليه الاختيار للذهاب إلى "قزقستان" والعمل في إحدى المدارس التركية.. وحين وصلها وحطّ رحاله فيها شعر وكأنه ينزل في بلد يعرفه حتى من قبل أن يولد... فهو

ابن هذه الأرض التي تعرفه كما يعرفها.. فآباؤه الأولون من هذا المكان انطلقوا... وأجداده الأبطال الأشداء المغامرون من هذه الأرض انطلقت خيولهم لتنداح إلى شتى أقطار المعمورة... وها هو اليوم مبعوث إلى هذه الديار لكي يوفي ما في عنقه من دين لهؤلاء الآباء والأجداد من خلال أحفادهم الجالسين على مقاعد الدراسة في هذه المدرسة.

...

ومن الغريب أنه وقبل أن يرحل إلى قزقستان ببضعة أشهر، قرأ في كتاب، عن شخص وفيّ مخلص، اسمه ياسين.. أحبه حباً جماً عن بعد. ولم يفارق خياله ولم يغب عن باله أبداً. فحكى عنه أينما ذهب وأينما جلس.. وأصبح مدار حديثه مع معارفه وأصدقائه.

وعندما قدم قزقستان سارع إلى السؤال عن ياسين وأراد التعرف عليه. فصعدوا به إلى ربوة مطلة على "ألماتا" حيث ياسين، وراحوا يقصون عليه قصته الحزينة:

كان طالبا في الثانوية عندما فُتحت المدارس التركية في أوطان ما وراء النهر آسيا الوسطى. كان مولعا بهذه الأراضي. يهوى الذهاب إليها من صميم قلبه. وعندما سنحت له الفرصة بادر إليها ولم يتردد ولو للحظة واحدة.. جمع عالمه في حقيبة سفره، وسار على درب ديار أحمد يَسَوِي..

راح يعمل دليلا ومرشدا في ثانوية "عتراو" التركية - القزقستانية من جانب، ويتابع دراسته الجامعية من جانب آخر.. أصبحت المدرسة والطلاب حياة ياسين وآماله.. فهما جليسه عند غربته، وأنيسه عند وحشته.. بذل قصارى جهده لتوثيق الأخوة الأبدية، ولبناء المستقبل المضيء بين

أبناء البلدين الشقيقين.. بدا طلابه في نظره كأنهم الأمل والحياة وسر البقاء.. ضمهم إلى صدره ضم الأم ولدها.. وأحبهم بكل قلبه وكيانه.. قدّم لهم كل ما لديه من علم نافع وأخلاق نيرة.. وسرعان ما أصبح ياسين، حبيب الطلاب وأخاهم الكبير الذي يُقتدى به.. وسيصبح فيما بعد بطلا وأسطورة يستوطن قلوبَ الكثيرين من أبناء وآباء وأمهات بلدة "عتراو".. ...

تشير الرزنامه إلى شهر آب عام ١٩٩٤في مدينة "عتراو".. ياسين وطلابه في نزهة على ضفة نهر "أق جاييق"... كلهم يعبث ويلعب بمرح وفرح.. لا أحد يدري مصيرَ قُدْوَتهم وأستاذهم "ياسين".. أُفلتت الكرة من بين اللاعبين وسقطت في النهر.. سارع الطالب "نورسلطان" لإمساكها قبل أن تجرها المياه إلى بعيد.. شقّ بيديه طريقه إليها وحاول إمساكها، وفجأة أحاطت به دوامة من دوامات النهر فراح يغطس ويتخبط ويصرخ ويستغيث.. "النجدة!.. أنقذوني.." فهرع الأستاذ ياسين نحوه وألقى بنفسه إلى جوف النهر.. راح يجدّف بيديه بكل ما فيه من طاقة وقوة.. حتى وصل إلى "نورسلطان" فحضنه ثم راح يسبح بسرعة نحو الضفة.. وراح ينادي ربه من صميم القلب: "يا رب إن آباء هؤلاء الشباب وأمهاتهم اعتمدوا علينا ووثقوا بنا فلا تخيب ظنهم بنا يا مغيث ويا أرحم الراحمين.." كان يحب طلابه كثيراً ولا يريد أن يصاب أي واحد منهم بمكروه.. وصل إلى الضفة بصعوبة وعناء شديد، لكنه شعر بإعياء شديد وما عاد يستطيع تحريك أي عضو من أعضائه.. أمسك الطلاب بنورسلطان وأخرجوه من الماء.. انشغلوا به وغاب أستاذهم عن بالهم فترة قصيرة.. سمع "ياسين" أن الطالب لا زال على قيد الحياة فحمد الله من الأعماق، ثم

همّ بالخروج من الماء ولكن دوامة أخرى من دوامات النهر سحبته إليها دون أن يستطيع مقاومتها من شدة ما كان يعانيه من تعب وإعياء وأخذته إلى البعيد... وسرعان ما راحت الأمواج تتقاذفه وتبعده عن الضفة حتى غاب عن الأنظار...

آثر تلميذه على نفسه، أنقذ طالبه وأسلم نفسه إلى المياه الجارفة.. وسار إلى ربه بنفس مطمئنة. إذ لم يأت إلى هذه البلاد إلا لخدمة الإنسانية ونثر بذور قيم رسالته السمحاء.. لم يأت إلى هذه البلاد إلا لكسب مرضاة ربه سبحانه.. وها هو ينال المنال ويلقى مولاه وهو يخدم أبناء هذه الأوطان..

كان مدير مدرسة ياسين قد قدم إلى تركيا قبل وقوع الحادثة بعدة أيام، إذ كانت زوجته قد أشرفت على الإنجاب.. وفي لحظة الولادة وصله نبأ وفاة ياسين.. ياسين الذي عاهد ربه بأن لا يتوقف عن خدمة الدين والإنسانية حتى يتفطر قلبه... احتضن المدير طفله وعيونه مبتلة بالدموع وهمس في أذنه: "ياسين.. ياسين أنت".

(*) كاتب وأديب تركي. الترجمة عن التركية: نور الدين صواش. وهي قصة حقيقية وقعت في قازاقِستان.

آخر حُرّاس الأقصى

صالح كُولَن *

- هنا رأيتُه يا محمد، هنا في هذا الفناء...

كان يشير إلى مكان في مجسّم المسجد الأقصى...(**) بصوت حزين كرر جملته:

- نعم، هنا رأيتُه... وامتلأت عيناه بالدموع...

بدأ حفيده محمد ينظر إليه وينظر إلى المجسّم بغرابة دون أن يجد معنى لذلك... كان جده يبكي، وكانت دموعه تسيل وكأنها ينبوع يتسلل من بين الصخور وينحدر بهدوء على لحيته البيضاء الناصعة. كان يشير إلى المكان وهو شارد في تفكيره وغارق في تأملاته...

سأل محمد ببراءة:

- ماذا حدث لك يا جدي؟!

لم يكن جده يسمعه، إذ كان مستغرقاً في عالم الماضي... انتظر محمد برهة ثم هز يد جده برفق وقال:

- هل أنت بخير يا جدي! ما بك؟ ماذا حدث لك فجأة؟!

تنفّس الجد الصعداء وعيناه على المجسم... وبعد فترة التفت إلى حفيده وحاول أن يبتسم رغم الدموع التي تملأ عينيه، ولكنه لم يفلح... تنهد من الأعماق مرة أخرى ثم قال:

- هذا المجسّم، أعادني خمساً وثلاثين سنة إلى الوراء يا بني...

لم يفهم الحفيد الواعي ما يقصد جدُّه من هذه الكلمات... تمتم العجوز وهو يمسح دموعه:

- نعم... سنوات طويلة قد مضت كلمح البصر...

سأل الحفيد محاولاً فهم ما يقول جده...

- ماذا تقصد يا جدي، أيّ سنوات؟!

ركع الجد بهدوء متكئاً على عصاه، ثم جلس مقابل مجسّم المسجد الأقصى وقال بحرقة قلب:

- قبل اثنتين وثلاثين سنة، في عام ١٩٧٢... كنت صحفياً شاباً، وكان أبوك في ذلك الوقت مثلكَ في الحادية عشرة من العمر... في تلك السنة كان بعض السياسيين ورجال الأعمال قد قاموا بزيارة رسمية للأراضي الشريفة، وكانت مهمتنا نحن كصحفيين، مراقبة التطورات والأحداث. تركتُ أباك وعمك وجدتك عند أبي، حتى إن أبي رحمه الله كان يقول دائماً: "هذا الولد لم يجد عملاً مناسباً حتى الآن، سيُشقي نفسه وسيُشقي عياله معه"... كانت الزيارة ستستغرق أربعة أيام... وصلنا القدس مساء يوم حار من شهر أيار... جرت اتصالات رسمية...

وفي اليوم الرابع نظموا لنا جولة إلى الأماكن التاريخية والسياحية في هذه الأراضي... كنت متلهفاً لرؤية القدس والمسجد الأقصى... كان الجو حارقاً وكان جسمي يتصبب عرقاً... وصلنا إلى المسجد الأقصى ضمن قافلة... كنتُ منفعلاً غاية الانفعال... حتى إني عندما رفعتُ الكاميرا لأصوّر شعرتُ بأن يدي ترتجف... صعدنا الدرجات التي تراها هنا... هذا الفناء العلوي يسمونه فناء الاثني عشر ألف شمعة، لأن السلطان

سليم الأول عندما فتح القدس كان قد أشعل في هذا الفناء اثني عشر ألف شمعة، وصلّى الجيش العثماني صلاة العشاء في ضوء تلك الشموع...

فقاطعه الحفيد وقال بحماس:

- كان أستاذنا يقول لنا إن العثمانيين فتحوا بيت المقدس عام ١٥١٦ للميلاد.

- نعم... هذا صحيح يا بني...

- وماذا حدث معكم في المسجد الأقصى يا جدي؟!

تابع الجد بأسى:

- بعد ذلك لفت نظري رجل في زاوية من زوايا الفناء... رجل في التسعينات من العمر... وعليه بذلة عسكرية قديمة جداً ومليئة بالرقع... حتى إن بعض هذه الرقع قد أعيد ترقيعها مرة أخرى... وكان يضع على رأسه أنورية... كان واقفاً هناك بشموخ وإباء... عرتني الدهشة...

- إيه يا جدي، ومَن كان ذلك الرجل؟!

- وأنا أيضاً أصابني الفضول لمعرفته... قلت في نفسي: لماذا يقف هذا الرجل تحت الشمس الحارقة هكذا... ثم سألت الدليل عنه، فقال إنه منذ أن وعى وهو يرى هذا الرجل في هذا المكان يقف كالتمثال حتى المساء كل يوم... لا يتكلم مع أحد ولا يردّ على أحد... يقف منتصباً فقط، ولعله مجنون... كان يصمه بالجنون، أما أنا فقد ازدادت لهفتي لمعرفة هذا الرجل والسبب الذي يجعله يقف تحت الحر الشديد ها هنا... اقتربتُ منه بدافع الفضول الصحفي... كان لباسه قديماً جداً، باهت اللون، ولكنه كان نظيفاً...

- إيه يا جدي وماذا حدث بعد ذلك!؟

- كنتُ متردداً هل أحادثه أم لا... ثم اقتربت منه جيداً... لاحظ اقترابي، ولكنه لم يبدِ أية ردة فعل... قلتُ: السلام عليكم يا عمّ... أدار وجهه نحوي قليلاً... تفحصني بطرف عينيه ثم قال بصوت خافت مرتجف: وعليكم السلام... اقشعرتْ أناملي فجأة، قلتُ في نفسي: يا إلهي، إن نبْرتَه تركية... أَيعقل أن يكون رجلاً تركياً!.. ولكن ما الذي جاء به إلى هنا!؟ إلى هذه الديار البعيدة عن بلاده!؟ فسألتُه بفضولٍ شديد:

- من أنت وماذا تفعل هنا يا عم!؟ ردّ بصوت خافت مرتجف:

- أنا... أنا العريف حسن، رئيس مجموعة الرشاش الحادية عشرة، الكتيبة الثامنة، الطابور السادس والثلاثين، من الفرقة العشرين في الجيش العثماني...

كانت الرجفة قد اختفت من صوته أثناء تقديم نفسه. ولكنه أعاد تعريف نفسه مرة أخرى وبصوت أقوى من ذي قبل وكأنه يريد إثبات وجوده ومتانته:

- أنا العريف حسن، رئيس مجموعة الرشاش الحادية عشرة، الكتيبة الثامنة، الطابور السادس والثلاثين، من الفرقة العشرين في الجيش العثماني...

فأصبتُ بالدهش الشديد مرة أخرى، وانطلقت الكلمات من بين شفتيّ دون إرادة:

- ماذا؟.. أنتَ عثماني؟!.

قال بكل فخر: "نعم"...

- وماذا تفعل هنا؟!.

عندها بدأ قصته الحزينة التي لن أنساها مدى حياتي:

- لقد هاجم الإنكليز كتيبتنا في الحرب العالمية الأولى من جبهة

القناة... حيث كان الجيش العثماني العظيم يحارب في جبهات عديدة رغم قلة المعدات الحربية لديه وإمكاناته الضيقة. وفي نهاية المطاف غُلب جيشُنا في القناة واضطر إلى الانسحاب... كانت بلاد أجدادنا الأمجاد تسقط واحدة تلو الأخرى... وعندما احتل الإنكليز القدس، ظلّتْ وحْدتُنا في القدس كقوة "حرس مؤخرة الانسحاب"...

فقاطعتُه بالسؤال:

- وماذا تعني وحدة حرس مؤخرة الانسحاب؟

- ترك العثمانيون حرساً لحماية هذه البلدة المباركة من السلب والنهب إلى حين دخول الإنكليز إليها؛ حيث كانت الدول قديماً عندما تحتل مدينةً، تطلب من الدولة المهزومة أن تبقي حرساً مؤخرة لئلا يثور الناس ضدها.. ومن هذا القبيل، طلب الإنكليز عند احتلالهم القدس، أن تُبقي الدولة العثمانية قوة لهذا الغرض.. وهذه القوات التي تبقى في مؤخرة الجيش يقال لها قوات "حرس مؤخرة الانسحاب"...

- ثم ماذا حدث بعد ذلك يا جدي؟

- ثم استطرد يحدث قائلاً: نحن بقينا في القدس وكنا ثلاثاً وخمسين شخصاً كحرس مؤخرة... وأثناء ذلك وصلَنا خبرُ تسريح جيشِ الدولة العثمانية العلية باتفاقية "موندروس"... عندها قال لنا اليُوزْبَاشي (النقيب): "أيها الأسود، إن الدولة العثمانية العلية في ضيق كبير... جيشنا المجيد يُسَرَّح... والقيادة تستدعيني إلى إسطنبول... يجب أن أذهب وألبّي الأوامر، وإلا أكن قد خالفتُ شروط الهدنة ورفضتُ الطاعة، فمن أراد منكم العودة إلى بلاده فليفعل... ولكن أقول لكم إن القدس الشريف أمانة السلطان سليم خان في أعناقنا، فلا يجوز أن نخون هذه الأمانة أو نتخلى عنها... فنصيحتي لكم أن تبقوا هنا حراساً، كي لا يقول الناس: "إن

الدولة العثمانية تخلت عنّا وغادرت"... وإن الدولة العثمانية إذا تخلّت عن القدس -أول قبلة لفخر الكائنات سيدنا محمد ﷺ- فإن ذلك سيكون انتصاراً حقيقياً لأعدائنا... فلا تضعوا عزّة الإسلام وكرامة الدولة العثمانية تحت الأقدام"...

فبقيتْ وحدتُنا كلها في القدس... لأننا ما رضينا أن يقول الناس "تخلت الدولة العثمانية عنا"... أردنا ألا يبكي المسجد الأقصى بعد أربعة قرون... أردنا ألا يتألم سلطان الأنبياء نبينا محمد ﷺ... لم نرض أن يستغرق العالم الإسلامي في مأتم وحزن... ثم تعاقبت السنون الطويلة ومضت كلمح البصر... ورفاقي كلهم انتقلوا إلى رحمة الله تعالى واحداً واحداً... لم يستطع الأعداء أن يقضوا علينا، وإنما القدر والموت... وها أنا ذا العريف حسن لا زلتُ على وظيفتي حارساً على القدس الشريف... حارساً على المسجد الأقصى...

امتلأتْ عيناه واختلطت دموعه بعَرَقِه الذي كان يتصبب من جبينه، إذ كانت تجاعيد وجهه تحتضن هذا المزيج الطاهر وكأنها لا تريد أن تُسقِط حتى قطرة واحدة منها على الأرض احتراماً لهذا البطل وتقديراً لصموده... ثم نظر إليّ نظرة رجاء وقال:

- عندي طلب منك يا بني... احتفظتُ بهذه الأمانة منذ سنوات طويلة... هل توصلها إلى أهلها؟.. أجبتُه:

- بكل تأكيد، طلبُك أوامر يا عم حسن... قال:

- يا بني... عندما تعود إلى الأناضول اذهب إلى قرية "سنجق توكات"، فهناك ضابطي النقيب مصطفى الذي أودعني هنا حارساً على المسجد الأقصى، ووضعه أمانة في عنقي... فقبِّل يديه نيابة عني وقل له: "سيدي الضابط، إن العريف "حسن الإغْدِرلي" رئيس مجموعة الرشاش الحادية

عشرة، الحارس في المسجد الأقصى، ما زال قائماً على حراسته في المكان الذي تركته منذ ذلك اليوم، ولم يترك نوبته أبداً... وإنه لَيرجو دعواتكم المباركة"...

- فقلت: "أمراً وطاعة يا عم، سأحملُ سلامكَ بكل سرور". كنتُ أحاول إخفاء دموعي تارة، وكنت أكتب ما يقوله تارة أخرى...

ثم سألني عن المدينة التي قَدِمتُ منها. فقلت: "من إسطنبول"... فأشرقتْ على وجهه ابتسامة ثم قال لي: "إسطنبول، إذن إنك قادم من دار السعادة... قل لي، ما أحوال الدولة العثمانية؟.. سكتُّ ولم أستطع أن أخبره أن الدولة العثمانية قد انهارت ولم يبق من أراضيها المديدة التي تشهد شروق الشمس وغروبها إلا بقعة صغيرة وهي تركيا... لم أستطع أن أخبره بما فعله الإنكليز والأرمن والروم وفرنسا... ولم أستطع أن أقول له إننا لم نقدر على الصمود أمام أعدائنا مثلكم... لم أستطع أن أقول له إن الذين كانوا بالأمس يتلقون الأخلاق والفضيلة والعلوم منا، أصبحوا اليوم هم يعلّموننا... ولكن استطعتُ أن أقول له فقط: "بخير... دولتنا بخير"...

عندها سألني بفضول:

- إنْ كانت دولتنا بخير لِمَ لا تأتي وتخلّص القدس من هؤلاء الكفرة؟!

فلم أجد ماذا أقول... إنما كل ما استطعت قوله: ستعود إن شاء الله ستعود يوماً... ثم أقبلتُ على يديه الخشنتين الطاهرتين وقبّلتهما بحرارة... ثم قلتُ: اسمح لي يا عم حسن، عليّ أن أذهب، أرجوك لا تنسانا من دعائك، اعتن بنفسك جيداً، أستودعك الله... فقال: رضي الله عنكَ يا بني، بلّغ سلامي الأناضول... وسلّم على الدولة العلية...

- وماذا حدث بعد ذلك يا جدي؟!

عدتُ إلى القافلة وما زالت الدهشة تغمرني... بدا وكأن تاريخ أجدادنا المجيد عاد حياً وانتصب واقفاً أمامي... كانت الفرص الضائعة، والأعمال التي لم تؤدَّ، وعدم الشعور بالمسؤولية، تنزل على رأسي كالصاعقة... ما زال جنديٌّ من جنود الدولة الغالية على قلبي، يقوم بحراسة القدس، وما زال منتصباً هناك بوقارِ ومهابةِ الدولة العثمانية!..

شرحتُ للدليل خطْب العريف حسن، ثم أعطيتُه عنواني وطلبتُ منه أن يخبرني عن أحواله ما استطاع إليه سبيلا...

- وماذا حدث بعد عودتكَ إلى تركيا يا جدي؟!

- كان عليَّ أن أوفي بالعهد... فذهبتُ إلى مدينة "توكات"... وبعد جهد جهيد عثرتُ على عنوان النقيب مصطفى... إلا أنه كان قد توفي منذ سنوات طويلة... لم أستطع أوفي بعهدي...

تعاقبت السنوات... وفي يوم من الأيام في عام ١٩٨٢ وأنا أعمل في وكالة الأنباء، جاءتني برقية من القدس الشريف، فقلتُ في نفسي: "غريب، ومِن مَن؟! فوجدتُ أنها قد أُرسلتْ من قبَل ذلك الدليل... فيها بضعة كلمات، لكنها تلخّص تاريخاً مجيداً فيه شهامة وشجاعة وعز وكرامة:

"لقد توفي اليوم آخر حُرّاس الأقصى"...

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: محمد ماهر قفص. وهي قصة حقيقية وقعت في القدس الشريف مع الصحفي التركي "إلهان بارْداكْجِي" رحمه الله.

(**) مجسّم المسجد الأقصى؛ يوجد في متحف المصغرات بإسطنبول، حيث يُعرَض في هذا المتحف مصغرات معالم تركيا والعالم أجمع، وتبلغ مساحته ٦٠ ألف متر مربع.

مكتبة حراء

إلى جبل قاف

كثيرا ما تبدو بعض القصص الواقعية وكأنها أقدر على منافسة أكثر القصص إيغالا في الخيال واشتطاطا فيه. وهذه القصص الواقعية التى يضمها هذا الكتاب هي من هذا القبيل. فإنها لغرابتها وغرابة أحداثها ووقائعها تكاد تند عن التصديق وتتأبى على المعقول، ولكنها في الحقيقة هي الصدق بعينه ومعظم أبطالها موجودون بيننا، نحادثهم ويحادثوننا، ونستمع إليهم ويستمعون لنا؛ إنهم شخصيات إنسانية شابة خفيضة العيش وافرة الراحة ناعمة البال عزيزة الجانب، فإذا بها تدير ظهرَها لكل ذلك وتختار عليه الاغتراب في عوالم مجهولة، فتقطع المسافات وترتاد الأقطار والقارات، فتفنى وتتعب وتكابد القر والحر، وتعاني في بعض البلاد النائية درجات حرارة تنخفض ما دون الصفر، وفي أخرى درجات حرارة عالية فوق المعقول.

فهذه القصص بواقعيتها وبما تهدف إليه من حيث كونها تقدم للقارئ نماذج لأبطال يُحتذَى بهم، ويُقتدى بسيرتهم لا تجد نفسَها ملزَمة بمراعاة الأدوات الفنية المطلوبة في أبنية القصص التي تُقرأ لمجرد المتعة وإزجاء الفراغ.

ويَحسُن أن ننبه إلى أن هذه القصص سبق وأن نشرت على صفحات مجلة حراء في أعداد مختلفة، فوجدنا جمعها في هذا الكتاب إتماما للفائدة، والله تعالى من وراء القصد.

ISBN 978-975-315-457-4
9 789753 154574
www.daralnile.com